(٦٧) سورة الملك مكية وآياتها ثلاثون

وتسمى (المنجية) لأنها تنجي قارئها من عذاب القبر ، وعن ابن عباس أنه كان يسميها (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها في القبر .

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ .

أما قوله (تبارك) فقد فسرناه فى أول سورة الفرقان ، وأما قوله (بيده الملك) فاعلم أن هذه اللفظة إنما تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكا ومالكا ، كما يقال : بيد فلان الأمر والنهى والحل والعقد ، ولا مدخل للجارحة فى ذلك . قال صاحب الكشاف : بيده الملك على كل موجود ، وهو على كل ما لم يوجد من الممكنات قدير ، وقوله (وهو على كل شىء قدير) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية احتج بها من زعم أن المعدوم شىء ، فقال قوله (إن الله على كل شىء قدير) يقتضى كون مقدوره شيئاً ، فذلك الشىء الذى هو مقدور الله تعالى ، إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، لا جائز أن يكون موجوداً ، لأنه لو كان قادراً على الموجود ، لكان إما أن يكون قادراً على إيجاده وهو محال ، لأن إيجاد الموجود محال ، وإما أن يكون قادراً على إعدامه وهو محال ، لاستحالة وقوع الإعدام بالفاعل ، وذلك لأن القدرة صفة مؤثرة فلا بد لها من تأثير ، والعدم نفى محض ، فيستحيل جعل العدم أثر القدرة ، فيستحيل وقوع الإعدام بالفاعل فثبت أن الشىء الذى هو مقدور الله ليس بموجود ، فوجب أن يكون معدوماً ، فلزم أن يكون ذلك المعدوم شيئاً ، واحتج أصحابنا النافون لكون المعدوم شيئاً بهذه الآية ، فقالوا : لا شك أن الجوهر من حيث إنه جوهر شىء ، والسواد من حيث هو سواد شىء ، والله قادر على كل شىء . فبمقتضى هذه الآية يلزم أن يكون قادراً على الجوهر من حيث إنه جوهر ، وعلى السواد من حيث هو سواد ، وإذا كان كذلك كان كون الجوهر جوهراً ، والسواد سواداً واقعاً بالفاعل ، والفاعل المختار لابد وأن يكون متقدماً على فعله ، فإذاً وجود الله وذاته متقدم على كون الجوهر جوهراً ، أو السواد سواداً ، فيلزم أن لا يكون المعدوم شيئاً وهو المطلوب ، ثم أجابوا عن شبهة

الخصم بأنا لا نسلم أن الإعدام لا يقع بالفاعل ، ولئن سلمنا ذلك ، لكن لم يجوز أن يقال المقدور الذى هو معدوم سمى شيئاً ، لأجل أنه سيصير شيئاً ، وهذا وإن كان مجازاً إلا أنه يجب المصير إليه ، لقيام سائر الدلائل الدالة على أن المعدوم ليس بشيء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم القاضى أبو بكر فى أحد قوليه أن إعدام الأجسام إنما يقع بالفاعل ، وهذا اختيار أبى الحسن الخياط من المعتزلة ، ومحمود الخوارزمى ، وزعم الجمهور منا ومن المعتزلة أنه يستحيل وقوع الإعدام بالفاعل ، احتج القاضى بأن الموجودات أشياء ، والله على كل شيء قدير ، فهو إذاً قادر على الموجودات ، فإما أن يكون قادراً على إيجادها وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، أو على إعدامها ، وذلك يقتضى إمكان وقوع الإعدام بالفاعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زعم الكعبى : أنه تعالى غير قادر على مثل مقدور العبد ، وزعم أبو على وأبو هاشم أنه تعالى غير قادر على مقدور العبد ، وقال أصحابنا إنه تعالى قادر على مثل مقدور العبد وعلى غير مقدوره ، واحتجوا عليه بأن عين مقدور العبد ومثل مقدوره شيء ، والله على كل شيء قدير ، فثبت بهذا صحة وجود مقدور واحد بين قادرين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ زعم أصحابنا : أنه لا مؤثر إلا قدرة الله تعالى ، وأبطلوا القول بالطبائع على ما يقوله الفلاسفة ، وأبطلوا القول بالمتولدات على ما يقوله المعتزله ، وأبطلوا القول بكون العبد موجداً لأفعال نفسه ، واحتجوا على الكل ، بأن الآية دالة على أنه تعالى قادر على كل شيء ، فلو وقع شيء من الممكنات لا بقدرة الله بل بشيء آخر ، لكان ذلك الآخر قد منع قدرة الله عن التأثير فيما كان مقدوراً له وذلك محال ، لأن ما سوى الله ممكن محدث ، فيكون أضعف قوة من قدرة الله ، والأضعف لا يمكن أن يدفع الأقوى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هذه الآية دالة على أن الإله تعالى واحد ، لأنا لو قدرنا إلها ثانيا ، فإما أن يقدر على إيجاد شيء أو لا يقدر ، فإن لم يقدر البتة على إيجاد شيء أصلا لم يكن إلها ، وإن قدر كان مقدور ذلك الإله الثانى شيئاً ، فيلزم كونه مقدوراً للاله الأول لقوله (وهو على كل شيء قدير) فيلزم وقوع مخلوق بين خالقين وهو محال ، لأنه إذا كان واحد منهما مستقلا بالإيجاد ، يلزم أن يستغنى بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، فيكون محتاجاً إليهما ، وغنياً عنهما ، وذلك محال .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج جهم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشيء ، فقال لو كان شيئاً لكان قادراً على نفسه لقوله (وهو على كل شيء قدير) لكن كونه قادراً على نفسه محال ، فيمتنع كونه شيئاً ، وقال أصحابنا لما دل قوله (قل أى شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد) على أنه تعالى شيء وجب تخصيص هذا العموم ، فإذاً هذه الآية قد دلت على أن العام المخصوص وارد فى كتاب الله تعالى ، ودلت على أن تخصيص العام بدليل العقل جائز بل واقع .

﴿ المسألة السابعة ﴾ زعم جمهور المعتزلة أن الله تعالى قادر على خلق الكذب والجهل

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾

والعبث والظلم ، وزعم النظام أنه غير قادر عليه ، واحتج الجمهور بأن الجهل والكذب أشياء (والله على كل شيء قدير) فوجب كونه تعالى قادراً عليها .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ احتج أهل التوحيد على أنه تعالى منزه عن الحيز والجهة ، فإنه تعالى لو حصل فى حيز دون حيز لكان ذلك الحيز الذى حكم بحصوله فيه متميزاً عن الحيز الذى حكم بأنه غير حاصل فيه ، إذ لو لم يتميز أحد الحيزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنه تعالى حصل فيه ولم يحصل فى الآخر . ثم إن امتياز أحد الحيزين عن الآخر فى نفسه يقتضى كون الحيز أمراً موجوداً لأن العدم المحض يمتنع أن يكون مشاراً إليه بالحس وأن يكون بعضه متميزاً عن البعض فى الحس ، وأن يكون مقصداً للمتحرك ، فإذن لو كان الله تعالى حاصلا فى حيز لكان ذلك الحيز موجوداً ، ولو كان ذلك الحيز موجوداً لكان شيئاً . ولكان مقدور الله لقوله تعالى (وهو على كل شيء قدير) وإذا كان تحقق ذلك الحيز بقدرة الله وبإيجاده ، فيلزم أن يكون الله متقدماً فى الوجود على تحقق ذلك الحيز ، ومتى كان كذلك كان وجود الله فى الأزل محققاً من غير حيز وله جهة أصلا والأزلى لا يزول البتة ، فثبت أنه تعالى منزه عن الحيز والمكان أزلا وأبداً .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ أنه تعالى قال أولا (بيده الملك) ثم قال بعده (وهو على كل شيء قدير) وهذا مشعر بأنه إنما يكون بيده الملك لو ثبت أنه على كل شيء قدير ، وهذا هو الذى يقوله أصحابنا من أنه لو وقع مراد العبد ولا يقع مراد الله ، لكان ذلك مشعراً بالعجز والضعف ، وبأن لا يكون مالك الملك على الإطلاق ، فدل ذلك ، على أنه لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادراً على جميع الأشياء .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ القدير مبالغة فى القادر ، فلما كان قديراً على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه البتة مانع عن إيجاد شيء من مقدوراته ، وهذا يقتضى أن لا يجب لأحد عليه شيء وإلا لكان ذلك الوجوب مانعاً له من الترك وأن لا يقبح منه شيء وإلا لكان ذلك القبح مانعاً له من الفعل ، فلا يكون كاملا فى القدرة ، فلا يكون قديراً والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالوا : الحياة هى الصفة التى يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر واختلفوا فى الموت ، فقال قوم : إنه عبارة عن عدم هذه الصفة وقال أصحابنا : إنه صفة وجودية مضادة للحياة واحتجوا على قولهم : بأنه تعالى قال : (الذى خلق الموت) والعدم لا يكون مخلوقاً هذا هو التحقيق ، وروى الكلبى بإسناده عن ابن عباس : أن الله تعالى خلق الموت فى صورة كبش أملح لا يمر بشيء ، ولا يجد رائحته شيء إلا مات وخلق الحياة

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

فى صورة فارس يلقاه فوق الحمار ودون البغل ، لا تمر بشىء ولا يجد ريحها شىء إلا حى . واعلم أن هذا لابد وأن يكون مقولا على سبيل التمثيل والتصوير ، وإلا فالتحقيق هو الذى ذكرناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما قدم ذكر الموت على ذكر الحياة مع أن الحياة مقدمة على الموت لوجوه : (أحدها) قال مقاتل يعنى بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح (وثانيها) روى عطاء عن ابن عباس قال يريد الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة دار الحيوان (وثالثها) أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن مناديا ينادى يوم القيامة يا أهل الجنة ، فيعلمون أنه من قبل الله عز وجل فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم ، ثم يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ويذبح . ثم ينادى ياأهل الجنة خلود بلا موت ، وياأهل النار خلود بلا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزن » واعلم أنا بينا أن الموت عرض من الأعراض كالسكون والحركة فلا يجوز أن يصير كبشاً بل المراد منه التمثيل ليعلم أن فى ذلك اليوم قد انقضى أمر الموت ، فظهر بما ذكرناه أن أيام الموت هى أيام الدنيا وهى منقضية ، وأما أيام الآخرة فهى أيام الحياة وهى متأخرة فلما كانت أيام الموت متقدمة على أيام الحياة لاجرم قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة (ورابعها) إنما قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض له أهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن الحياة هى الأصل فى النعم ولولاها لم يتنعم أحد فى الدنيا وهى الأصل أيضاً فى نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم ، والموت أيضاً نعمة على ما شرحنا الحال فيه فى مواضع من هذا الكتاب ، وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه ، قال عليه الصلاة والسلام « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » وقال لقوم « لو أكثرتم ذكر هازم اللذات لشغلكم عما أرى » وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فأثنوا عليه ، فقال « كيف ذكره الموت ؟ قالوا قليل ، قال فليس كما تقولون » .

قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصى وذلك فى حق من وجب أن يكون عالماً بجميع المعلومات أزلا وأبداً محال ، إلا أنا قد حققنا هذه المسألة فى تأويل قوله (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) والحاصل أن الابتلاء من الله هو أن يعامل عبده معاملة تشبه [الابتلاء] على المختبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج القائلون بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله (ليبلوكم) قالوا هذه اللام للغرض ونظيره قوله تعالى (إلا ليعبدون) وجوابه أن الفعل فى نفسه ليس بابتلاء إلا أنه

لما أشبه الابتلاء سمي مجازاً ، فكذا ههنا ، فإنه يشبه الغرض وإن لم يكن فى نفسه غرضاً ، فذكر فيه حرف الغرض .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ اعلم أنا فسرنا (الموت والحياة) بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة ، والحياة بعد ذلك فوجه الابتلاء على هذا الوجه أن يعلم أنه تعالى هو الذى (نقله من الموت) إلى الحياة (، كما فعل ذلك فلا بد وأن يكون قادراً على أن ينقله من الحياة إلى الموت (فيحذر مجىء الموت الذى به ينقطع استدراك ما فات ويستوى فيه (الفقير والغنى) و (المولى والعبد) ، وأما إن فسرناهما بالموت فى الدنيا وبالحياة فى القيامة فالابتلاء فيهما أتم لأن الخوف من الموت فى الدنيا حاصل وأشد منه الخوف من تبعات الحياة فى القيامة ، والمراد من الابتلاء أنه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف أم لا .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ فى تعلق قوله (ليبلوكم) بقوله (أيكم أحسن عملا) وجهان : (الأول) وهو قول الفراء والزجاج إن المتعلق (بأيكم) مضمر والتقدير (ليبلوكم) فيعلم أو فينظر (أيكم) أحسن عملا (والثانى) قال صاحب الكشاف (ليبلوكم) فى معنى ليعلمكم والتقدير ليعلمكم (أيكم أحسن عملا) .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ ارتفعت أى بالابتداء ولا يعمل فيها ما قبلها لأنها على أصل الاستفهام فإنك إذا قلت لا أعلم أيكم أفضل كان المعنى لا أعلم أزيد أفضل أم عمرو ، واعلم أن ما لا يعمل فيما بعد الألف فكذلك لا يعمل فى أى لأن المعنى واحد ، ونظير هذه الآية قوله (سلهم أيهم بذلك زعيم) ، وقد تقدم الكلام فيه .

﴿ **المسألة السادسة** ﴾ ذكروا فى تفسير (أحسن عملا) وجوها : (أحدها) أن يكون أخاص الأعمال وأصوبها لأن العمل إذا كان خالصاً غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صواباً غير خالص فالخالص أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السنة (وثانيها) قال قتادة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يقول أيكم أحسن عقلا » ثم قال أتمكم عقلا أشدكم لله خوفاً وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً ، وإنما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لأنه يترتب على العقل ، فمن كان أتم عقلا كان أحسن عملا على ما ذكر فى حديث قتادة (وثالثها) روى عن الحسن أيكم أزهد فى الدنيا وأشد تركا لها ، واعلم أنه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده (وهو العزيز الغفور) أى وهو العزيز الغالب الذى لا يعجزه من أساء العمل ، الغفور لمن تاب من أهل الإساءة ،

واعلم أن كونه عزيزاً غفوراً لا يتم إلا بعد كونه قادراً على كل المقدورات عالماً بكل المعلومات أما أنه لابد من القدرة التامة ، فلأجل أن يتمكن من إيصال جزاء كل أحد بتمامه إليه سواء كان عقاباً أو ثواباً ، وأما أنه لابد من العلم التام فلأجل أن يعلم أن المطيع من هو والعاصى من هو فلا يقع الخطأ فى إيصال الحق إلى مستحقه ، فثبت أن كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن ثبوتها إلا بعد ثبوت

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾

القدرة التامة والعلم التام ، فلهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين فى هذا المقام ، ولما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً ، لاجرم ذكر أولا دلائل القدرة وثانياً دلائل العلم .

أما دليل القدرة فهو قوله ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر صاحب الكشاف فى (طباقاً) ثلاثة أوجه (أولها) طباقاً أى مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق ، وهذا وصف بالمصدر (وثانيها) أن يكون التقدير ذات طباق (وثالثها) أن يكون التقدير طوبقت طباقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلالة هذه السموات على القدرة من وجوه (أحدها) من حيث إنها بقيت فى جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة (وثانيها) من حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص (وثالثها) أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة (ورابعها) كونها فى ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها إلى قادر تام القدرة .

وأما دليل العلم فهو قوله ﴿ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى من تفوت والباقون من تفاوت ، قال الفراء : وهما بمنزلة واحدة مثل تظهر وتظاهر ، وتعهد وتعاهد ، وقال الأخفش : تفاوت أجود لأنهم يقولون تفاوت الأمر ولا يكادون يقولون تفوت ، واختار أبو عبيدة : تفوت ، وقال يقال تفوت الشيء إذا فات ، واحتج بما روى فى الحديث أن رجلا تفوت على أبيه فى ماله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ومنه قولهم تعلق متعلق متفاوت ونقيضه متناسب ، وأما ألفاظ المفسرين : فقال السدى من تفاوت أى من اختلاف عيب ، يقول الناظر لو كان كذا كان أحسن ، وقال آخرون (التفاوت) الفطور بدليل قوله بعد ذلك (فارجع البصر هل ترى من فطور) نظيره قوله (وما لها من فروج) قال القفال ويحتمل أن يكون المعنى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) فى الدلالة على حكمة صانعها وأنه لم يخلقها عبثاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الخطاب فى قوله (ما ترى) إما للرسول أو لكل مخاطب وكذا القول فى

ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

قوله (فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (طباقاً) صفة للسموات ، وقوله بعد ذلك (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) صفة أخرى للسموات والتقدير خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فيهن من تفاوت إلا أنه وضع مكان الضمير قوله (خلق الرحمن) تعظيما لخلقهن وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه (خلق الرحمن) وأنه بباهر قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل أن هذه السموات السبع ، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان ، وكل فاعل كان فعله محكما متقناً فإنه لابد وأن يكون عالما ، فدل هذه الدلالة على كونه تعالى عالماً بالمعلومات فقوله (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) إشارة إلى كونها محكمة متقنة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج الكعبى بهذه الآية على أن المعاصى ليست من خلق الله تعالى ، قال لأنه تعالى نفى التفاوت فى خلقه ، وليس المراد نفى التفاوت فى الصغر والكبر والنقص والعيب فوجب حمله على نفى التفاوت فى خلقه من حيث الحكمة ، فيدل من هذا الوجه على أن أفعال العباد ليست من خلقه على ما فيها من التفاوت الذى بعضه جهل وبعضه كذب وبعضه سفه ، (الجواب) بل نحن نحمله على أنه لا تفوت فيها بالنسبة إليه ، من حيث إن الكل يصح منه بحسب القدرة والإرادة والداعية ، وإنه لا يقبح منه شىء أصلا ، فلم كان حمل الآية على التفاوت من الوجه الذى ذكرتم أولى من حملها على نفى التفاوت من الوجه الذى ذكرناه ، ثم إنه تعالى أكد بيان كونها محكمة متقنة ، وقال (فارجع البصر هل ترى من فطور) والمعنى أنه لما قال (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) كأنه قال بعده ، ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد ، ولا تعتمد عليه بسبب أنه قد يقع الغلط فى النظرة الواحدة ، ولكن ارجع البصر واردد النظرة مرة أخرى ، حتى تتيقن أنه ليس فى خلق الرحمن من تفاوت البتة . والفطور جمع فطر ، وهو الشق يقال فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير ، كما يقال شق ومعناه شق اللحم فطلع ، قال المفسرون (هل ترى من فطور) أى من فروج وصدوع وشقوق ، وفتوق ، وخروق ، كل هذا ألفاظهم .

ثم قال تعالى ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ .

أمر بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع ، هل يجد فيه عيباً وخللا ، يعنى أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب ، بل يرجع إليك خاسئاً أى مبعداً من قولك خسأت الكلب إذا باعدته ، قال المبرد : الخاسىء المبعد المصغر ، وقال ابن عباس : الخاسىء الذى لم يرما يهوى ، وأما الحسير فقال ابن عباس هو الكليل ، قال الليث

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

الحسر والحسور الأعياء ، وذكر الواحدى ههنا احتمالين (أحدهما) أن يكون الحسير مفعولا من حسر العين بعد المرئى ، قال رؤبة :

يحسر طرف عيناه فضا

﴿الثانى﴾ قول الفراء أن يكون فاعلا من الحسور الذى هو الإعياء ، والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيباً ولا فطوراً ، بل البصر يرجع خاسئاً من الكلال والإعياء ، وههنا سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً برجعه كرتين اثنتين (الجواب) التثنية للتكرار بكثرة كقولهم لبيك وسعديك يريد إجابات متوالية .

﴿السؤال الثانى﴾ فما معنى ثم ارجع (الجواب) أمره يرجع البصر ثم أمره بأن لا يقنع بالرجعة الأولى ، بل أن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعيده ويعاوده إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور .

قوله تعالى : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾

إعلم أن هذا هو الدليل الثانى على كونه تعالى قادراً عالماً ، وذلك لأن هذه الكواكب نظراً إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص ، وموضع معين ، وسير معين ، تدل على أن صانعها قادر ونظراً إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا ، وسبباً لانتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها عالم ، ونظير هذه الآية فى سورة الصفات (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد) وههنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ السماء الدنيا السماء القربى ، وذلك لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس ، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح ، فقيل : ولقد زينا سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح أى بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ، أما قوله تعالى (وجعلناها رجوماً للشياطين) فاعلم أن الرجوم جمع رجم ، وهو مصدر سمى به ما يرجم به ، وذكروا فى معرض هذه الآية وجهين : (الوجه الأول) أن الشياطين إذا أرادوا استراق السمع رجموا بها ، فإن قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضى بقاءها واستمرارها وجعلها رجوماً للشياطين ورميهم بها يقتضى زوالها والجمع بينهما متناقض ، قلنا ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب ، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها ، وتلك الشعل هى الشهب ، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار والنار

باقية (الوجه الثانى) فى تفسير كون الكواكب رجوما للشياطين أنا جعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم الاحكاميون من المنجمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة فى السماء الدنيا ، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت فى السماء الدنيا أو كانت فى سموات أخرى فوقها ، فهى لابد وأن تظهر فى السماء الدنيا وتلوح منها ، فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح .

واعلم أن أصحاب الهيئة اتفقوا على أن هذه الثوابت مركوزة فى الفلك الثامن الذى هو فوق كرات السيارات ، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت فى الفلك الثامن ، فيجب أن تكون كلها هناك ، وإنما قلنا إن بعضها فى الفلك الثامن ، وذلك لأن الثوابت التى تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات ، فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة ، وإنما قلنا إن هذه الثوابت لما كانت فى الفلك الثامن وجب أن تكون كلها هناك ، لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة فى كل مائة سنة درجة واحدة ، فلا بد وأن تكون مركوزة فى كرة واحدة

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، فإنه لا يلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك ، لأنه لا يبعد وجود كرة تحت القمر ، وتكون فى البطء مساوية لكرة الثوابت ، وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارن القطبين مركوزة فى هذه الكرة السفلية ، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين فى الحركة ، وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركوزة فى السماء الدنيا ، فثبت أن مذهب الفلاسفة فى هذا الباب ضعيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن منافع النجوم كثيرة ، منها أن الله تعالى زين السماء بها ، ومنها أنه يحصل بسببها فى الليل قدر من الضوء ، ولذلك فإنه إذا تكاثف السحاب فى الليل عظمت الظلمة ، وذلك بسبب أن السحاب يحجب أنوارها ، ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت فى أحوال الفصول الأربعة ، فإنها أجسام عظيمة نورانية ، فإذا قارنت الشمس كوكباً مسخناً فى الصيف ، صار الصيف أقوى حراً ، وهو مثل نار تضم إلى نار أخرى ، فإنه لا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى ، ومنها أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، على ما قال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) ومنها أنه تعالى جعلها رجوماً للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر ، يروى أن السبب فى ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء ، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ، ورصدت الشياطين ، فمن جاء منهم مسترقاً للسمع رمى بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبى أمره ويرتاب الناس بخبره ، فهذا هو السبب فى انقضاض الشهب ، وهو المراد من قوله (وجعلناها رجوماً للشياطين) ومن الناس

من طعن فى هذا من وجوه (أحدها) أن انقضاض الكواكب مذكور فى كتب قدماء الفلاسفة ، قالوا إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس ، وإذا بلغ النار التى دون الفلك احترق بها ، فتلك الشعلة هى الشهاب (وثانيها) أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك فى شيء مرة ومراراً وألفاً امتنع أن يعود إليه من غير فائدة (وثالثها) أنه يقال فى ثخن السماء فإنه مسيرة خمسمائة عام ، فهؤلاء الجن إن نفذوا فى جرم السماء وخرقوا اتصاله ، فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال (فارجع البصر هل ترى من فطور) وإن كانوا لا ينفذون فى جرم السماء ، فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم ، ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم ، فلا يسمعوا كلام الملائكة حال كونهم فى الأرض (ورابعها) أن الملائكة إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلة ، إما لأنهم طالعوها فى اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقفوها من وحى الله تعالى إليهم ، وعلى التقديرين فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها (وخامسها) أن الشياطين مخلوقون من النار ، والنار لا تحرق النار بل تقويها ، فكيف يعقل أن يقال إن الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب (وسادسها) أنه كان هذا الحذف لأجل النبوة فلم دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة السلام (وسابعها) أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض ، بدليل أنا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك ، لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب ، وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض ، فكيف يقال إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك (وثامنها) أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة ، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار ، حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم ؟ (وتاسعها) لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج فى دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب ؟ .

و ﴿ الجواب عن السؤال الأول ﴾ أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لأسباب أخر ، إلا أن ذلك لا ينافى أنها بعد مبعث النبى عليه الصلاة والسلام قد توجد بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم . يروى أنه قيل للزهرى : أكان يرمى فى الجاهلية قال نعم ، قيل أفرأيت قوله تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) قال غلظت ، وشدد أمرها حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم .

و ﴿ الجوب عن السؤال الثانى ﴾ أنه إذا جاء القدر عمى البصر ، فإذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالتها ، قيض لها من الدواعى المطمعة فى درك المقصود ماعندها ، تقدم على العمل المفضى إلى الهلاك والبوار .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾

و﴿ الجواب عن السؤال الثالث ﴾ أن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، فأما ثخن الفلك فلعله لا يكون عظيما .

و ﴿ أما الجواب عن السؤال الرابع ﴾ ما روى الزهرى عن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام عن ابن عباس قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالساً فى نفر من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال « ما كنتم تقولون فى الجاهلية إذا حدث مثل هذا ، قالوا كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم ، قال عليه الصلاة والسلام « فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر فى السماء سبحت حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء ، وسبح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ، ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ولا يزال ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، ويتخطف الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ، ولكنهم يزيدون فيه .

﴿ والجواب عن السؤال الخامس ﴾ أن النار قد تكون أقوى من نار أخرى ، فالأقوى يبطل الأضعف .

﴿ والجواب عن السؤال السادس ﴾ أنه إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطلان الكهانة ، فلو لم يدم هذا العذاب لعادت الكهانة ، وذلك يقدح فى خبر الرسول عن بطلان الكهانة ،

و﴿ الجواب عن السؤال السابع ﴾ أن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع ، فلعله تعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقفوا فى تلك الموضع سمعوا كلام الملائكة .

و ﴿ الجواب عن السؤال الثامن ﴾ لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين .

و﴿ الجواب عن السؤال التاسع ﴾ أنه تعالى يفعل مايشاء ويحكم ما يريد ، فهذا مايتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الكواكب وذكر أن من جملة المنافع أنها رجوم للشياطين ، قال بعد ذلك (وأعتدنا لهم عذاب السعير) أى أعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب فى الدنيا عذاب السعير فى الآخرة . قال المبرد : سعرت النار فهى مسعورة ، وسعير كقولك مقبولة وقبيل ، واحتج أصحابنا على أن النار مخلوقة الآن بهذه الآية لأن قوله (وأعتدنا) أخبار عن الماضى .

قوله تعالى : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين فى أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات ، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادراً على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبث والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان ، وبين

إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ

أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزاً فى حق المصرين على الإساءة غفوراً فى حق التائبين ومن ذلك كان كونه عزيزاً وغفوراً لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملا فى القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة ، وحينئذ ثبت كونه قادراً على تعذيب العصاة فقال (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم) أى ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم ، ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك ، وقرىء (عذاب جهنم) بالنصب عطف بيان على قوله (عذاب السعير) ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفات كثيرة :

﴿الصفة الأولى﴾ قوله تعالى ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ .

(ألقوا) طرحوا كما يطرح الحطب فى النار العظيمة ويرمى به فيها ، ومثله قوله (حصب جهنم) وفى قوله (سمعوا لها شهيقاً) وجوه (أحدها) قال مقاتل سمعوا لجهنم شهيقاً ، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق ، قال الزجاج : سمع الكفار للنار شهيقاً ، وهو أقبح الأصوات ، وهو كصوت الحمار ، وقال المبرد : هو والله أعلم تنفس كتنفس المتغيظ (وثانيها) قال عطاء : سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقاً (وثالثها) سمعوا من أنفسهم شهيقاً ، كقوله تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) والقول هو الأول .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله ﴿ وهى تفور ﴾ قال الليث : كل شيء جاش فقد فار ، وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين ، قال ابن عباس : تغلى بهم كغلى المرجل ، وقال مجاهد تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل ، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب ، قال المبرد : يقال تركت فلاناً يفور غضباً ، ويتأكد هذا القول بالآية الآتية .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ يقال فلان يتميز غيظاً ، ويتعصف غيظاً وغضب فطارت منه شعلة فى الأرض وشعلة فى السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه . وأقول لعل السبب فى هذا المجاز أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب . والدم عند الغليان يصير أعظم حجماً ومقداراً فتتمدد تلك الأوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات فى البدن ، فكلما كان الغضب أشد كان الغليان أشد ، فكان الازدياد أكثر ، وكان تمدد الأوعية وانشقاقها وتميزها أكثر ، فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب ، فإن قيل النار ليست من الأحياء ، فكيف يمكن وصفها بالغيظ (قلنا الجواب) من وجوه (أحدها) أن البنية عندنا ليست شرطاً للحياة . فلعل الله يخلق فيها وهى نار حياة (وثانيها) أنه شبه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته (وثالثها) يجوز أن يكون المراد غيظ الزبانية .

كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾

(الصفة الرابعة) قوله تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ .
الفوج الجماعة من الناس والأفواج الجماعات فى تعرفه ، ومنه قوله (فتأتون أفواجاً) وخزنتها مالك وأعوانه من الزبانية (ألم يأتكم نذير) وهو سؤال توبيخ ، قال الزجاج : وهذا التوبيخ زيادة لهم فى العذاب ، وفى الآية مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ احتجت المرجئة على أنه لا يدخل النار أحد إلا الكفار بهذه الآية ، قالوا لأنه تعالى حكى عن كل من ألقى فى النار أنهم قالوا كذبنا النذير ، وهذا يقتضى أن من لم يكذب الله ورسوله لا يدخل النار ، واعلم أن ظاهر هذه الآية يقتضى القطع بأن الفاسق المصر لايدخل النار ، وأجاب القاضى عنه بأن النذير ، قد يطلق على ما فى العقول من الأدلة المحذرة المخوفة ، ولا أحد يدخل النار إلا وهو مخالف للدليل غير متمسك بموجبه .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ احتج القائلون بأن معرفة الله وشكره لايجبان إلا بعد ورود السمع بهذه الآية . وقالوا هذه الآية دلت على أنه تعالى إنما عذبهم لأنه أتاهم النذير ، وهذا يدل على أنه لو لم يأتهم النذير لما عذبهم .

ثم إنه تعالى حكى عن الكفار جوابهم عن ذلك السؤال من وجهين :

(الأول) قوله تعالى : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء ﴾ .
واعلم أن قوله (بلى قد جاءنا نذير فكذبنا) اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل ، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا (مانزل الله من شىء) .

أما قوله تعالى ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ فى الآية وجهان (الوجه الأول) وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين (الوجه الثانى) يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار ، والتقدير أن الكفار لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم (إن أنتم إلا فى ضلال كبير) .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ يحتمل أن يكون المراد من الضلال الكبير ماكانوا عليه من ضلالهم فى الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الهلاك ، ويحتمل أن يكون سمى عقاب الضلال باسمه .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ هذا هو الكلام .

﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(الثانى) مما حكاه الله تعالى عن الكفار جواباً للخزنة حين قالوا (ألم يأتكم نذير) والمعنى لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالباً للحق أو تعقله عقل من كان متأملا متفكراً لما كنا من أصحاب السعير ، وقيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسألة الهدى والإضلال ، بأن قالوا لفظة لو تفيد امتناع الشىء لامتناع غيره . فدلت الآية على أنه ما كان لهم سمع ولا عقل ، لكن لاشك أنهم كانوا ذوى أسماع وعقول صحيحة ، وإنهم ما كانوا صم الإسماع ولا مجانين ، فوجب أن يكون المراد أنه ما كان لهم سمع الهداية ولا عقل الهداية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج بهذه الآية من قال الدين لا يتم إلا بالتعليم . فقال إنه قدم السمع على العقل تنبيهاً على أنه لابد أولا من إرشاد المرشد وهداية الهادى ، ثم إنه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقيه المعلم (والجواب) أنه إنما قدم السمع لأن المدعوا إذا أتى الرسول فأول المراتب أنه يسمع كلامه ثم إنه يتفكر فيه ، فلما كان السمع مقدماً بهذا السبب على التعقل والتفهم لا جرم قدم عليه فى الذكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف : ومن بدع التفاسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأى ، ثم قال كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين ، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من فضل السمع على البصر بهذه الآية ، وقالوا دلت الآية على أن للسمع مدخلا فى الخلاص عن النار والفوز بالجنة ، والبصر ليس كذلك ، فوجب أن يكون السمع أفضل .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار هذا القول قال ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ قال مقاتل : يعنى بتكذيبهم الرسول وهو قولهم : (فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء) وقوله (بذنبهم) فيه قولان : (أحدهما) أن الذنب ههنا فى معنى الجمع ، لأن فيه معنى الفعل ، كما يقال : خرج عطاء الناس ، أى عطياتهم هذا قول الفراء (والثانى) يجوز أن يراد بالواحد المضاف الشائع ، كقوله (وإن تعدوا نعمة الله) ثم قال ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ قال المفسرون : فبعداً لهم اعترفوا أو جحدوا ، فإن ذلك لا ينفعهم ، والسحق البعد ، وفيه لغتان : التخفيف والتثقيل ، كما تقول فى العنق والطنب ، قال الزجاج : سحقاً منصوب على المصدر ، والمعنى أسحقهم الله سحقاً ، أى باعدهم الله من رحمته مباعدة ، وقال أبو على الفارسى . كان القياس سحاقاً ، فجاء المصدر على الحذف كقولهم : عمرك الله .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ 

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجرة كبير ﴾ وفيه وجهان (الوجه الأول) أن المراد : إن الذين يخشون ربهم وهم فى دار التكليف والمعارف النظرية وبهم حاجة إلى مجاهدة الشيطان ودفع الشبه بطريق الاستدلال (الوجه الثانى) أن هذا إشارة إلى كونه متقياً من جميع المعاصى لأن من يتق معاصى الله فى الخلوة اتقاها حيث يراه الناس لا محالة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على انقطاع وعيد الفساق ، فقالوا دلت الآية على أن من كان موصوفا بهذه الخشية فله الأجر العظيم ، فإذا جاء يوم القيامة مع الفسق ومع هذه الخشية ، فقد حصل الأمران فإما أن يثاب ثم يعاقب وهو بالإجماع باطل أو يعاقب ثم ينقل إلى دار الثواب وهو المطلوب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ووعد المؤمنين على سبيل المغايبة رجع بعد ذلك إلى خطاب الكفار فقال :

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ وفيه وجهان : (الوجه الأول) قال ابن عباس كانوا ينالون من رسول الله فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض (أسروا قولكم) لئلا يسمع إله محمد فأنزل الله هذه الآية (القول الثانى) أنه خطاب عام لجميع الخلق فى جميع الأعمال ، والمراد أن قولكم وعملكم على أى سبيل وجد ، فالحال واحد فى علمه تعالى بهذا فاحذروا من المعاصى سراً كما تحترزون عنها جهراً فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى ، وكما بين أنه تعالى عالم بالجهر وبالسر بين أنه عالم بخواطر القلوب .

ثم إنه تعالى لما ذكر كونه عالماً بالجهر وبالسر وبما فى الصدور ذكر الدليل على كونه عالماً بهذه الأشياء . فقال : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ أن معنى الآية أن من خلق شيئاً لابد وأن يكون عالماً بمخلوقه ، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهى أيضاً مقررة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلى الشىء لابد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك الشىء فإن الغافل عن الشىء يستحيل أن يكون قاصداً إليه ، وكما أنه ثبت أن الخالق لابد وأن يكون عالماً بماهية المخلوق لابد وأن يكون عالماً بكميته ، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ماهو أزيد منه أو

أنقص لابد وأن يكون بقصد الفاعل واختياره ، والقصد مسبوق بالعلم فلابد وأن يكون قد علم ذلك المقدار وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولى من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه ، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحاً لأحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ، فثبت أن من خلق شيئاً فإنه لابدوأن يكون عالماً بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته ، وإذا ثبتت هذه المقدمة فنقول : تمسك أصحابنا بهذه الآية فى بيان أن العبد غير موجد لأفعاله من وجهين (الوجه الأول) قالوا لو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالما بتفاصيلها ، لكنه غير عالم بتفاصيلها فهو غير موجد لها ، بيان الملازمة من وجهين (الأول) التمسك بهذه الآية (الثانى) أن وقوع عشرة أجزاء من الحركة مثلا ممكن ووقوع الأزيد منه والأنقص منه أيضاً ممكن ، فاختصاص العشرة بالوقوع دون الأزيد ودون الأنقص ، لابد وأن يكون لأجل أن القادر المختار خصه بالإيقاع ، وإلا لكان وقوعه دون الأزيد والأنقص وقوعاً للممكن المحدث من غير مرجح ، لأن القادر المختار إذا خص تلك العشرة بالإيقاع فلا بد وأن يكون عالماً بأن الواقع عشرة لا أزيد ولا أنقص ، فثبت أن العبد لو كان موجداً لأفعال نفسه لكان عالما بتفاصيلها . وأما أنه غير عالم بتفاصيلها فلوجوه (أحدها) أن المتكلمين اتفقوا على أن التفاوت بين الحركة السريعة والبطيئة لأجل تخلل السكنات ، فالفاعل للحركة البطيئة قد فعل فى بعض الأحياز حركة وفى بعضها سكوناً مع أنه لم يخطر البتة بباله أنه فعل ههنا حركة وههنا سكوناً (وثانيها) أن فاعل حركة لا يعرف عدد أجزاء تلك الحركات إلا إذا عرف عدد الأحياز التى بين مبدأ المسكنة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بأن الجواهر الفردية التى تتسع لها تلك المسافة من أولها إلى آخرها كم هى ؟ ومعلوم أن ذلك غير معلوم (وثالثها) أن النائم والمغمى عليه قد يتحرك من جنب إلى جنب مع أنه لا يعلم ماهية تلك الحركة ولا كميتها (ورابعها) أن عند أبى على ، وأبى هاشم ، الفاعل إنما يفعل معنى يقتضى الحصول فى الحيز ، ثم إن ذلك المعنى الموجب مما لا يخطر ببال أكثر الخلق ، فظهر بهذه الدلالة أن العبد غير موجد لأفعاله (الوجه الثانى) فى التمسك بهذه الآية على أن العبد غير موجد أن نقول إنه تعالى لما ذكر أنه عالم بالسر والجهر وبكل ما فى الصدور قال بعده (ألا يعلم من خلق) وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله لو كان تعالى خالقاً لكل ما يفعلونه فى السر والجهر ، وفى الصدور والقلوب ، فإنه لو لم يكن خالقاً لها لم يكن قوله (ألا يعلم من خلق) مقتضياً كونه تعالى عالماً بتلك الأشياء ، وإذا كان كذلك ثبت أنه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه فى السر والجهر من أفعال الجوارح ومن أفعال القلوب ، فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد : ألا يعلم من خلق الأجسام والعالم الذى خلق الأجسام هو العالم بهذه الأشياء ؟ قلنا إنه لا يلزم من كونه خالقاً لغيره هذه الأشياء كونه عالماً بها ، لأن من يكون فاعلا لشىء لا يجب أن يكون عالماً بشىء آخر ، نعم يلزم من كونه خالقاً لها كونه عالماً بها لأن خالق الشىء يجب أن يكون عالماً به .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ الآية تحتمل ثلاثة أوجه : (أحدها) أن يكون من خلق فى محل الرفع والمنصوب يكون مضمراً والتقدير (ألا يعلم من خلق) مخلوقه (وثانيها) أن يكون من خلق فى محل النصب ويكون المرفوع مضمراً ، والتقدير ألا يعلم الله من خلق (والاحتمال الأول) أولى لأن (الاحتمال الثانى) يفيد كونه تعالى عالماً بذات من هو مخلوقه ، ولا يقتضى كونه عالماً بأحوال من هو مخلوقه والمقصود من الآية هذا لا الأول (وثالثها) أن تكون من فى تقدير ما كما تكون ما فى تقدير من فى قوله(والسماء وما بناها)وعلى هذا التقدير تكون ما إشارة إلى مايسره الخلق وما يجهرونه ويضمرونه فى صدورهم وهذا يقتضى أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

أما قوله (وهو اللطيف الخبير) فاعلم أنهم أختلفوا فى (اللطيف) فقال بعضهم المراد العالم وقال آخرون بل المراد من يكون فاعلا للأشياء اللطيفة التى تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين ، ولهذا يقال إن لطف الله بعباده عجيب ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم ، وهذا الوجه أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعده تكراراً .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بين بالدلائل كونه عالما بما يسرون وما يعلنون ، ثم ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد ، ونظيره من قال لعبده الذى أساء إلى مولاه فى السر يافلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس فى هذه الدار التى وهبتها منك ، كل هذا الخير الذى هيأته لك ولا تأمن تأديبى ، فإنى إن شئت جعلت هذه الدار التى هى منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ الآفات التى تتحير فيها ومنبعاً للمحن التى تهلك بسببها ، فكذا ههنا ، كأنه تعالى قال . أيها الكفار اعلموا أنى عالم بسركم وجهركم . فكونوا خائفين منى محترزين من عقابى ، فهذه الأرض التى تمشون فى مناكبها ، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم ، أنا الذى ذللتها إليكم وجعلتها سبباً لنفعكم ، فامشوا فى مناكبها ، فإنى إن شئت خسفت بكم هذه الأرض ، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن ، فهذا هو الوجه فى اتصال هذه الآية بما قبلها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الذلول من كل شىء : المنقاد الذى يذل لك ، ومصدره الذل ، وهو الانقياد واللين ، ومنه يقال : دابة ذلول ، وفى وصف الأرض بالذلول أقوال (أحدها) أنه تعالى ماجعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشى عليها ، كما يمتنع المشى على وجوه الصخرة الخشنة (وثانيها) أنه

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾

تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها ، وبناء الأبنية منها كما يراد ، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك (وثالثها) أنها لو كانت حجرية ، أو كانت مثل الذهب أو الحديد ، لكانت تسخن جداً فى الصيف ، وكانت تبرد جداً فى الشتاء ، ولكانت الزراعة فيها ممتنعة ، والغراسة فيها متعذرة ، ولما كانت كفاتاً للأموات والأحياء (ورابعها) أنه تعالى سخرها لنا بأن أمسكها فى جو الهواء ، ولو كانت متحركة على الاستقامة ، أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فامشوا فى مناكبها) أمر إباحة ، وكذا القول فى قوله (وكلوا من رزقه) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكروا فى مناكب الأرض وجوهاً (أحدها) قال صاحب الكشاف : المشى فى مناكبها مثل لفرط التذليل ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شىء من البعير ، وأبعده من إمكان المشى عليه ، فإذا صار البعير بحيث يمكن المشى على منكبه ، فقد صار نهاية فى الانقياد والطاعة ، فثبت أن قوله (فامشوا فى مناكبها) كناية عن كونها نهاية فى الذلولية (وثانيها) قول قتادة والضحاك وابن عباس : إن مناكب الأرض جبالها وآكامها ، وسميت الجبال مناكب ، لأن مناكب الإنسان شاخصة . والجبال أيضاً شاخصة ، والمعنى أنى سهلت عليكم المشى فى مناكبها ، وهى أبعد أجزائها عن التذليل ، فكيف الحال فى سائر أجزائها (وثالثها) أن مناكبها هى الطرق ، والفجاج والأطراف والجوانب . وهو قول الحسن ومجاهد والكلبى ومقاتل ، ورواية عطاء عن ابن عباس ، واختيار الفراء ، وابن قتيبة قال : مناكبها جوانبها ، ومنكبا الرجل جانباه . وهو كقوله تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلا فجاجاً) أما قوله (وكلوا من رزقه) أى مما خلقه الله رزقاً لكم فى الأرض (وإليه النشور) يعنى ينبغى أن يكون مكثكم فى الأرض ، وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله ، والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصى فى السر والجهر ، ثم إنه تعالى بين أن بقاءهم مع هذه السلامة فى الأرض إنما كان بفضل الله ورحمته ، وأنه لو شاء لقلب الأمر عليهم ، ولأمطر عليهم من سحاب القهر مطر الآفات .

فقال تقريراً لهذا المعنى ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴾ .

واعلم أن هذه الآيات نظيرها قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) وقال (فخسفنا به وبداره الأرض) .

واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله (ءأمنتم من فى السماء) ، (والجواب) عنه أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين ، لأن كونه فى السماء يقتضى كون السماء محيطاً به من جميع الجوانب ، فيكون أصغر من السماء ، والسماء أصغر من العرش

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

بكثير ، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش ، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال ، ولأنه تعالى قال (قل لمن ما في السموات والأرض قل الله) فلو كان الله فى السماء لوجب أن يكون مالكا لنفسه وهذا محال ، فعلمنا أن هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها إلى التأويل ، ثم فيه وجوه : (أحدها) لم لا يجوز أن يكون تقدير الآية : أأمنتم من فى السماء عذابه ، وذلك لأن عادة الله تعالى جارية ، بأنه إنما ينزل البلاء على من يكفر بالله ويعصيه من السماء فالسماء موضع عذابه تعالى ، كما أنه موضع نزول رحمته ونعمته (وثانيها) قال أبو مسلم : كانت العرب مقرين بوجود الإله ، لكنهم كانوا يعتقدون أنه في السماء على وفق قول المشبهة ، فكأنه تعالى قال لهم : أتأمنون من قد أقررتم بأنه فى السماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم الأرض (وثالثها) تقدير الآية : من فى السماء سلطانه وملكه وقدرته ، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته ، كما قال (وهو الله فى السموات وفى الأرض) فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة فى مكانين ، فوجب أن يكون المراد من كونه فى السموات وفى الأرض نفاذ أمره وقدرته ، وجريان مشيئته فى السموات وفى الأرض ، فكذا ههنا (ورابعها) لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله (من فى السماء) الملك الموكل بالعذاب ، وهو جبريل عليه السلام ، والمعنى أن يخسف بهم الأرض بأمر الله وإذنه . وقوله (فإذا هى تمور) قالوا معناه : إن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك ، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها ، فيذهبون والأرض فوقهم تمور ، فتلقيهم إلى أسفل السافلين ، وقد ذكرنا تفسير المور فيما تقدم .

ثم زاد فى التخويف فقال ﴿ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ .

قال ابن عباس : كما أرسل على قوم لوط ، فقال (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) والحاصب ريح فيها حجارة وحصباء ، كأنها تقلع الحصباء لشدتها ، وقيل هو سحاب فيها حجارة .

ثم هدد وأوعد فقال ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ .

قيل فى النذير ههنا إنه المنذر ، يعنى محمداً عليه الصلاة والسلام وهو قول عطاء عن ابن عباس والضحاك ، والمعنى فستعلمون رسولى وصدقه ، لكن حين لا ينفعكم ذلك ، وقيل إنه بمعنى الإنذار ، والمعنى فستعلمون عاقبة إنذارى إياكم بالكتاب والرسول ، وكيف فى قوله (كيف نذير) ينبىء عما ذكرنا من صدق الرسول ، وعقوبة الإنذار .

واعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بهذه التخويفات أكد ذلك التخويف بالمثال والبرهان أما المثال فهو أن الكفار الذين كانوا قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم فقال :

وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ يعنى عاداً وثمود وكفار الأمم ، وفيه وجهان (أحدهما) قال الواحدى (فكيف كان نكير) أى إنكارى وتغييرى ، أليس وجدوا العذاب حقاً (والثانى) قال أبو مسلم : النكير عقاب المنكر ، ثم قال : وإنما سقط الياء من نذيرى ، ومن نكيرى حتى تكون مشابهة لرؤوس الآى المتقدمة عليها ، والمتأخرة عنها . وأما البرهان فهو أنه تعالى ذكر ما يدل على كمال قدرته ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادراً على إيصال جميع أنواع العذاب إليهم ؛ وذلك البرهان من وجوه :

﴿ البرهان الأول ﴾ هو قوله تعالى ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ﴾ .

(صافات) أى باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها (ويقبضن) ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، فإن قيل لم قال (ويقبضن) ولم يقل وقابضات ، قلنا لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجىء بما هو طارىء غير أصلى بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح .

ثم قال تعالى ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها فى جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ هل تدل هذه الآية على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله ، قلنا نعم ، وذلك لأن استمساك الطير فى الهواء فعل اختيارى للطير ،

ثم إنه تعالى قال ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ فدل هذا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه تعالى قال فى النحل (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله) وقال ههنا (ما يمسكهن إلا الرحمن) فما الفرق ؟ قلنا ذكر فى النحل (أن الطير مسخرات فى جو السماء) فلا جرم كان إمساكها هناك محض الإلهية ، وذكر ههنا أنها صافات وقابضات ، فكان إلهامها إلى كيفية البسط ، والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن .

ثم قال تعالى ﴿ إنه بكل شىء بصير ﴾ وفيه وجهان (الوجه الأول) المراد من البصير ، كونه عالماً بالأشياء الدقيقة ، كما يقال : فلان بصر فى هذا الأمر ، أى حذق (والوجه الثانى) أن نجرى اللفظ على ظاهره ، فنقول إنه تعالى شىء ، والله بكل شىء بصير ، فيكون رائياً لنفسه ولجميع الموجودات ، وهذا هو الذى يقوله أصحابنا من أنه تعالى يصح أن يكون مرئياً وأن كل

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

الموجودات كذلك ، فإن قيل البصير إذا عدى بالباء يكون بمعنى العالم ، يقال فلان بصير بكذا إن كان عالماً به ، قلنا لانسلم ، فإنه يقال : إن الله سميع بالمسموعات ، بصير بالمبصرات .

قوله تعالى : ﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ .

اعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان ، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان تعويلهم على شيئين (أحدهما) القوة التى كانت حاصلة لهم بسبب مالهم وجندهم (والثانى) أنهم كانوا يقولون هذه الأوثان ، توصل إلينا جميع الخيرات ، وتدفع عنا كل الآفات وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين . أما الأول فبقوله (أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) وهذا نسق على قوله (أم أمنتم من فى السماء) والمعنى أم من يشار إليه من المجموع ، ويقال هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم ، ثم قال (إن الكافرون إلا فى غرور) أى من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم .

أما الثانى فهو قوله ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ .

والمعنى : من الذى يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم ، وهذا أيضاً مما لا ينكره ذو عقل ، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر .

قال تعالى ﴿ بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق ، فى عتو أى فى تمرد وتكبر ونفور ، أى تباعد عن الحق وإعراض عنه . فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية ، والنفور بسبب جهلهم ، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية ، واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور ، نبه على ما يدل على قبح هذين الوصفين ،

قوله تعالى : ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى : أكب مطاوع كبه ، يقال كببته ، فأكب ونظيره قشعت

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ



الريح السحاب فأقشع ، قال صاحب الكشاف : ليس الأمر كذلك ، وجاء شيء من بناء أفعل مطاوعاً ، بل قولك أكب معناه دخل فى الكب وصار ذا كب ، وكذلك أقشع السحاب دخل فى القشع ، وأنفض ، أى دخل فى النقض ، وهو نفض الوعاء ، فصار عبارة عن الفقر وألام دخل فى اللوم ، وأما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى تفسير قوله (يمشى مكباً على وجهه) وجوهاً : (أحدها) معناه أن الذى يمشى فى مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض . فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكباً فحاله نقيض حال من يمشى سوياً أى قائماً سالماً من العثور والخرور (وثانيها) أن المتعسف الذى يمشى هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشى إلى جهة معلومة مع العلم واليقين (وثالثها) أن الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوى الصحيح البصر الماشى فى الطريق المعلوم ، ثم اختلفوا فمنهم من قال هذا حكاية حال الكافر فى الآخرة ، قال قتادة الكافر أكب على معاصى الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه ، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوى يوم القيامة ، وقال آخرون بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل فى الدنيا ، واختلفوا أيضاً فمنهم من قال هذا عام فى حق جميع المؤمنين والكفار ، ومنهم من قال بل المراد منه شخص معين ، فقال مقاتل المراد أبو جهل والنبى عليه الصلاة والسلام ، وقال عطاء عن ابن عباس المراد أبو جهل وحمزة بن عبد المطلب وقال عكرمة هو أبو جهل وعمار بن ياسر .

﴿ البرهان الثانى ﴾ على كمال قدرته قوله تعالى ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أورد البرهان (أولا) من حال سائر الحيوانات ، وهو وقوف الطير فى الهواء ، أورد البرهان بعده من أحوال الناس وهو هذه الآية ، وذكر من عجائب مافيه حال السمع والبصر والفؤاد ، ولقد تقدم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة فى هذا الكتاب مراراً فلا فائدة فى الإعادة ، واعلم أن فى ذكرها ههنا تنبيهاً على دقيقة لطيفة ، كأنه تعالى قال أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة ، لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ، ولا تأملتم فى عاقبة ماعقلتموه ، فكأنكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المواهب ، فلهذا قال (قليلا ماتشكرون) وذلك لأن شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه ،

قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته البتة .

﴿البرهان الثالث﴾ قوله تعالى ﴿ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى استدل بأحوال الحيوانات (أولا) ثم بصفات الإنسان (ثانياً) وهى السمع والبصر والعقل ، ثم بحدوث ذاته (ثالثاً) وهو قوله (هو الذى ذرأكم فى الأرض) واحتج المتكلمون بهذه الآية على أن الإنسان ليس هو الجوهر المجرد عن التحيز والكمية على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين لأنه قال (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض) فبين أنه ذرأ الإنسان فى الأرض ، وهذا يقتضى كون الإنسان متحيزاً جسما ، واعلم أن الشروع فى هذه الدلائل إنما كان لبيان صحة الحشر والنشر ليثبت ما ادعاه من الابتلاء فى قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) ثم لأجل إثبات هذا المطلوب ، ذكر وجوهاً من الدلائل على قدرته ، ثم ختمها بقوله (قل هل الذى ذرأكم فى الأرض) ولما كانت القدرة على الخلق ، ابتداء توجب القدرة على الإعادة لا جرم قال بعده (وإليه تحشرون) فبين بهذا أن جميع ما تقدم ذكره من الدلائل إنما كان لإثبات هذا المطلوب .

واعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يخوفهم بعذاب الله حكى عن الكفار شيئين (أحدهما) أنهم طالبوه بتعيين الوقت .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو مسلم إنه تعالى قال : يقول بلفظ المستقبل فهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول فى المستقبل ، ويحتمل الماضى ، والتقدير : فكانوا يقولون هذا الوعد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية ، ولعلهم كانوا يقولونها إيهاماً للضعفة أنه لما لم يتعجل فلا أصل له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوعد المسؤول عنه ما هو ؟ فيه وجهان (أحدهما) أنه القيامة (والثانى) أنه مطلق العذاب ، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء الله .

ثم أجاب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى ﴿ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ والمراد أن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع ، فالعلم الأول حاصل عندى ، وهو كاف فى الإنذار والتحذير ، أما العلم الثانى فليس إلا لله ، ولا حاجة فى كونى نذيراً مبيناً إليه .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ



ثم إنه تعالى بين حالهم عند نزول ذلك الوعد فقال تعالى ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله فلما رأوه الضمير للوعد ، والزلفة القرب والتقدير ، فلما رأوه قرباً ويحتمل أنه لما اشتد قربه ، جعل كأنه فى نفس القرب . وقال الحسن معاينة ، وهذا معنى وليس بتفسير ، وذلك لأن ما قرب من الإنسان رآه معاينة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (سيئت وجوه الذين كفروا) قال ابن عباس اسودت وعلتها الكآبة والقترة ، وقال الزجاج تبين فيها السوء ، وأصل السوء القبح ، والسيئة ضد الحسنة ، يقال ساء الشىء يسوء ، فهو سيىء إذا قبح ، وسيء يساء إذا قبح ، وهو فعل لازم ومتعد فمعنى سيئت وجوههم قبحت بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا ، وصارت وجوههم كوجه من يقاد إلى القتل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن قوله (فلما رأوه زلفة) إخبار عن الماضى ، فمن حمل الوعد فى قوله (ويقولون متى هذا الوعد) على مطلق العذاب سهل تفسير الآية على قوله فلهذا قال أبو مسلم فى قوله (فلما رأوه زلفة) يعنى أنه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم كالذى نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عند قربه منهم ، وأما من فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله (فلما رأوه زلفة) معناه فمتى ما رأوه زلفة ، وذلك لأن قوله (فلما رأوه زلفة) إخبار عن الماضى وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية فوجب تفسير اللفظ بما قلناه ، قال مقاتل (فلما رأوه زلفة) أى لما رأوا العذاب فى الآخر قريباً .

قوله تعالى : ﴿ وقيل هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم القائلون هم الزبانية ، وقال آخرون بل يقول بعضهم لبعض ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (تدعون) وجوه : (أحدها) قال الفراء يريد (تدعون) من الدعاء أى تطلبون وتستعجلون به ، وتدعون وتدعون واحد فى اللغة مثل تذكرون وتذكرون وتدخرون وتدخرون (وثانيها) أنه من الدعوى معناه : هذا الذى كنتم تبطلونه أى (تدعون) أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذى كنتم بسببه (وتدعون) أنكم لا تبعثون (وثالثها) أن يكون هذا استفهاماً على سبيل الإنكار ، والمعنى أهذا الذى تدعون ، لا بل كنتم تدعون عدمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ يعقوب الحضرمى (تدعون) خفيفة من الدعاء ، وقرأ السبعة (تدعون) مثقلة من الادعاء .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ اعلم أن هذا الجواب هو من النوع الثانى مما قاله الكفار لمحمد ﷺ حين خوفهم بعذاب الله ، يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنون بالهلاك ، كما قال تعالى (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وقال (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) ثم إنه تعالى أجاب عن ذلك من وجهين (الوجه الأول) هو هذه الآية ، والمعنى قل لهم إن الله تعالى سواء أهلكنى بالإماتة أورحمنى بتأخير الأجل ، فأى راحة لكم فى ذلك ، وأى منفعة لكم فيه ، ومن الذى يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ، أتظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها ، فإذا علمتم أن لا مجير لكم فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث .

(الوجه الثانى) فى الجواب قوله تعالى ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين ﴾ .

والمعنى أنه الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيعلم أنه لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد فى حقنا ، مع أنا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم ، ثم قال (وعليه توكلنا) لا على غيره كما فعلتم أنتم حيث توكلتم على رجالكم وأموالكم ، وقرىء فستعلمون على المخاطبة ، وقرىء بالياء ليكون على وفق قوله (فمن يجير الكافرين) .

واعلم أنه لما ذكر أنه يجب أن يتوكل عليه لا على غيره ، ذكر الدليل عليه ، فقال تعالى ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر ، أى أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض فمن يأتيكم بماء معين ، فلا بد وأن يقولوا هو الله ، فيقال لهم حينئذ فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلا شريكا له فى المعبودية ؟ وهو كقوله (أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) وقوله (غوراً) أى غائراً ذاهباً فى الأرض يقال غار الماء يغور غوراً ، إذا نضب وذهب فى الأرض ، والغور ههنا بمعنى الغائر سمى بالمصدر كما يقال رجل عدل ورضا ، والمعين الظاهر الذى تراه العيون فهو من مفعول العين كمبيع ، وقيل المعين الجارى من العيون من الإمعان فى الجرى كأنه قيل ممعن فى الجرى ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة المُلْك

مكيَّةٌ في قول الجميع. وتُسَمَّى: الواقية والمُنْجِيَة. وهي ثلاثون آية[1] روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: ضَرَب رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ خِباءَه على قبر، وهو لا يحسب أنَّه قبر، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورةَ المُلْك حتى خَتَمَها، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ضربتُ خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنَّه قبر، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورة المُلْك حتى ختمها! فقال رسولُ الله ﷺ: «هي المانعةُ، هي المُنْجِيةُ؛ تُنْجيه من عذاب القبر». قال: حديثٌ حسن غريب[2].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْتُ أنَّ «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ» في قلب كلِّ مؤمن». ذكره الثعلبي[3].

وعن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ سورةً من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية، شفعت لرجلٍ حتى أخرجته من النار يوم القيامة، وأدخلته الجنَّة وهي سورة تبارك». خَرَّجه الترمذيُّ بمعناه، وقال فيه: حديث حسن[4].

وقال ابن مسعود: إذا وُضع الميِّت في قبره فيؤتَى من قِبلَ رجليه، فيُقال: ليس

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٣ .

(٢) سنن الترمذي (٢٨٩٠)، وكلامه بتمامه: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي هريرة. اهـ . وفيه يحيى بن عمرو النكري وهو ضعيف. وذكر الحديث الذهبيُّ في ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٩ وعدَّه من مناكير يحيى.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٦١٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٧ : وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٥٦٥ من طريق حفص بن عمر المدني وقال: هذا إسناد عند اليمانيين صحيح، ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: حفص واه.

(٤) سنن الترمذي (٢٨٩١)، وأخرجه أيضاً بمثل لفظ الترمذي: أحمد (٧٩٧٥)، وأبو داود (١٤٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦١٢)، وابن ماجه (٣٧٨٦). وهو بلفظ المصنف عند الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٩٩ .

لكم عليه سبيل، فإنَّه كان يقومُ بسورة الملك على قدميه. ثم يُؤتَى من قِبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل، إنَّه كان يقرأُ بي[1] سورةَ الملك، ثمَّ قال: هي المانعةُ من عذاب القبر[2]، وهي في التوراة سورةُ الملك؛ من قرأها في ليلةٍ فقد أكثر وأطيب[3]. ورُوي أنَّ من قرأها كلَّ ليلةٍ لم يضرَّه الفتان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل؛ من البركة. وقد تقدَّم[4]. وقال الحسن: تقدَّس. وقيل: دام. فهو الدائمُ الذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لدوامه.

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: ملكُ السماوات والأرض في الدنيا والآخرة[5]. وقال ابن عباس: بيده الملك؛ يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ويُحيي ويُميت، ويُغني ويُفقِر، ويُعطي ويمنع[6]. وقال محمدُ بن إسحاق: له ملك النبوَّة التي أعزَّ بها من اتبعه، وذلَّ بها من خالفه. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إنعامٍ وانتقام[7].

---

(١) في (ف) في، وليست في (د) و(ظ) و(ف). والمثبت من (خ) و(ز) و(م).

(٢) في النسخ عدا (ظ): عذاب الله.

(٣) في (د) والمستدرك وشعب الإيمان: أطنب. والمثبت من بقية النسخ والمصادر الآتية، وقول ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٠٢٥)، ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٥١)، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٩٨، وعنه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وقال: الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٨ : وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة. وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) ٩/ ٢٤٤ و ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٤٩.

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٩ مختصراً.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٤٩. وكلام محمد بن إسحاق منه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة؛ يعني: للموت في الدنيا، والحياة في الآخرة[1].

وقدَّم الموتَ على الحياة؛ لأنَّ الموتَ إلى القهر أقرب؛ كما قدَّم البناتِ على البنين فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشورى:٤٩].

وقيل: قدَّمه لأنَّه أقدم؛ لأنَّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت؛ كالنُّطْفَة والتراب ونحوه[2].

وقال قتادة: كانَ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى أذلَّ بني آدم بالموت، وجعلَ الدنيا دارَ حياةٍ ثمَّ دارَ مَوْت، وجعل الآخرةَ دار جزاءٍ ثم دار بقاء»[3].

وعن أبي الدَّرْدَاء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لولا ثلاثٌ ما طأطأَ ابنُ آدم رأسَه: الفقر، والمرض، والموت، وإنَّه مع ذلك لَوَثَّاب»[4].

المسألة الثانية: ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قُدِّمَ الموتُ على الحياة، لأنَّ أقوى الناس داعياً إلى العمل مَن نَصَب موتَه بين عينيه؛ فَقُدِّم لأنَّه فيما يرجع إلى الغرضِ المسوق له الآيةُ أهمّ[5].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٠ .

(٢) مجمع البيان ٢٩/ ٦ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٥٠ . وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩١ ، والطبري مختصراً ٢٢/ ٦٣٦ و ٢٣/ ١١٨ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ١٧٦ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٧ : لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو مرسل.

(٤) لم نقف عليه عن أبي الدرداء، وذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٧٧ من قول سفيان بن عيينة.

(٥) الكشاف ٤/ ١٣٤ .

قال العلماء: الموتُ ليسَ بعدمٍ مَحْضٍ، ولا فَناءٍ صِرْف، وإنَّما هو انقطاعُ تعلُّقِ الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولةٌ بينهما، وتبدُّلُ حالٍ، وانتقالٌ من دار إلى دار. والحياةُ عكس ذلك[١]. وحُكي عن ابن عباس والكَلْبِي ومُقاتل: أنَّ الموتَ والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبشٍ لا يمرُّ بشيءٍ ولا يجدُ ريحَه إلا مات، وخَلق الحياة على صورة فرسٍ أنثى بلْقاء - وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها - خطوها[٢] مدُّ البصر، فوقَ الحمار ودون البغل، لا تمرُّ بشيءٍ يجدُ ريحها إلا حَيِيَ، ولا تطأُ على شيء إلا حَيِيَ. وهي التي أخذ السَّامِرِيُّ من أثرها فألقاه على العجل فَحَيِيَ[٣]. حكاه الثعلبيّ والقُشَيري عن ابن عباس[٤]. وحكى المَاوَرْدِي[٥] معناه عن مقاتل والكلبيّ.

قلت: وفي التنزيل ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ثمَّ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، ثمَّ قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. فالوسائطُ ملائِكةٌ مكرَّمون صلوات الله عليهم. وهو سبحانه المميت على الحقيقة، وإنَّما يُمَثَّل الموت بالكبش في الآخرة[٦] ويذبح على الصراط؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح[٧]. وما ذُكِر عن ابن عباس يحتاجُ إلى خبرٍ صحيح يَقطع العذر. والله أعلم.

وعن مقاتل أيضاً: خلق الموت؛ يعني: النُّطْفَة والعَلَقَة والمُضْغَة، وخلق الحياة؛

---

(١) ينظر المفهم ٧/ ١٤٥.

(٢) في (ق) و(م) خطوتها.

(٣) سلف الخبر ١٤/ ١٢٧.

(٤) وذكره البغوي ٤/ ٣٦٩.

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٥٠، ولفظة: حكى. من (ظ).

(٦) وقعت العبارة في (خ) و(ز) و(ف) و(ق): أما إنه يمثل الموت بالكبش في الآخرة، وفي (ظ): أما إنه جاء بمثل الموت من الآخرة بكبش. والمثبت من (د) و(م).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤٩).

يعني: خَلَق إنساناً ونَفَخ فيه الروح فصار إنساناً[١].

قلت: وهذا قولٌ حسن؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وتقدَّم الكلام فيه في سورة الكهف[٢].

وقال السُّدِّيّ في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أكثرُكم للموت ذكراً، وأحسنُ استعداداً، ومنه أشدُّ خوفاً وحذراً[٣].

وقال ابن عمر: تلا النبيُّ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حتى بلغ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال: «أَوْرَعُ عن محارم الله، وأسرعُ في طاعة الله»[٤].

وقيل: معنى «لِيَبْلُوَكُمْ»: ليعامِلَكم معاملةَ المختبر، أي: ليبلُوَ العبدَ بموت من يَعِزُّ عليه؛ ليُبيِّن صبره، وبالحياة؛ ليُبيِّن[٥] شكره. وقيل: خَلَق الله الموتَ للبعث والجزاء، وخَلَق الحياةَ للابتلاء. فاللام في «لِيَبْلُوَكُمْ» تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت؛ ذكره الزَّجَّاج[٦]. وقال الفَرَّاء والزَّجَّاج أيضاً[٧]: لم تقع البَلْوَى على «أيّ»؛ لأنَّ فيما بين البلوى و«أيّ» إضمارُ فعل؛ كما تقول: بلوتُكم لأنظرَ أيُّكم أطوع. ومثلُه قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي: سَلْهم، ثمَّ انظرْ أيُّهم. فـ«أيُّكم»[٨] رُفِع بالابتداء، و«أَحْسَنُ» خبره[٩]. والمعنى: ليبلوكم فيعلم أو فينظر

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٨٦، وتفسير الرازي ٣٠/٥٥.

(٢) ١٣/٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٨٨)، وذكره الماوردي في تفسيره ٦/٥٠.

(٤) هو حديث ضعيف وسلف ١١/٧٦.

(٥) في (ظ): ليتبين. في الموضعين.

(٦) في معاني القرآن ٥/١٩٧.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/١٦٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/١٩٧.

(٨) في (خ) و(ظ) و(ف) و(ق): فأيهم، وسقطت اللفظة من (د)، والمثبت من (م).

(٩) تفسير البغوي ٤/٣٦٩ وكلام الفراء السالف منه.

أيُّكم[١] أحسنُ عملاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصاه. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب إليه[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضُها فوق بعض. والملتزقُ منها أطرافها؛ كذا رُوي عن ابن عباس. و«طِبَاقاً» نعتٌ لـ «سَبْع»؛ فهو وصفٌ بالمصدر. وقيل: مصدرٌ بمعنى المطابقة، أي: خَلَق سبعَ سماواتٍ، وطبَّقها تطبيقاً أو مطابقة. أو على: طُوبقت طِباقاً[٣].

وقال سيبويه: نصب «طباقاً» لأنَّه مفعولٌ ثان.

قلت: فيكون «خَلَقَ» بمعنى جعل وصَيَّر.

وطِباق جمع طَبَق؛ مثل جَمَل وجِمال. وقيل: جمع طبقة. وقال أبَان بن تَغْلِب: سمعتُ بعضَ الأعراب يذمُّ رجلاً فقال: شَرُّهُ طِباق، وخيرُه غير باق[٤].

ويجوز في غير القرآن سبعَ سماوات طباقٍ؛ بالخفض على النعت لسماوات[٥]. ونظيره ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٣].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قراءةُ حمزةَ والكسائيّ: «مِن تَفَوُّتٍ» بغير ألف مشدَّدة. وهي قراءةُ ابن مسعود وأصحابه[٦]. الباقون: «مِنْ تَفَاوُتٍ» بألف. وهما

---

(١) لفظة: أيكم. من(ظ) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٦ والكلام منه.

(٢) لفظة: إليه. ليست في (د) و(م). والمثبت موافق لتفسير البغوي ٤/ ٣٦٩ .

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١٣٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨ ، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦٤٤ ، والتيسير ص٢١٢ .

لغتان[١]؛ مثل التعاهد والتعهُّد، والتحمُّل والتحامل، والتظهُّر والتظاهر، وتصاغر وتصغّر وتضاعف وتضعّف، وتباعد وتبعّد؛ كلُّه بمعنًى.

واختار أبو عبيد «من تَفَوُّت»، واحتجَّ بحديث عبد الرحمن بن أبي بكر: «أَمِثْلِي يُتَفَوَّتُ عليه في بَنَاتِه»[٢]!

النَّحَّاس[٣]: وهذا أمرٌ مردودٌ على أبي عبيد؛ لأنَّ يُتفوّت: يُفتات بهم. «وتفاوت» في الآية أشبه. كما يقال: تباين يقال: تفاوتَ الأمرُ: إذا تباين وتباعد، أي: فات بعضُها بعضاً. ألَا ترى أنَّ قبلَه قولَه: تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾. والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاجٍ ولا تناقضٍ ولا تباين - بل هي[٤] مستقيمةٌ مستويةٌ دالَّة على خالقها - وإنْ اختلفت صُوَره وصفاته.

وقيل: المرادُ بذلك السماوات خاصة، أي: ما ترى في خلق السماوات من عَيْب[٥].

وأصله من الفَوْت؛ وهو أنْ يفوتَ شيءٌ شيئاً، فيقع الخلل لقلَّة استوائها[٦]؛ يدلُّ

(١) هو قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٧٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٦٨.

(٢) قطعة من خبر تزويج عائشة رضي الله عنها لحفصة بنت عبد الرحمن من المنذر بن الزبير، وعبد الرحمن غائب بالشام؛ أخرجه مالك ٢/ ٥٥٥، وعبد الرزاق (١١٩٤٧)، وسعيد بن منصور (١٦٦٦٢)، وابن أبي شيبة ٤/ ١٣٤ بلفظ يُفتات. بدل يتفوت. وهما بمعنى. قال ابن الأثير في النهاية (فوت): يقال تفوّت فلان على فلان في كذا، وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرف فيه. اهـ.

غير أن الحديث الذي احتج به أبو عبيد في غريب الحديث ٢/٢٢٨ ونقله عنه الرازي في تفسيره ٣٠/٥٧ هو حديث عائشة: قالت: تفوت رجل بمال نفسه على أبيه... أخرجه ابن أبي حاتم في العلل ١/ ٤٧٠، وابن عدي في الكامل ٢/ ٦١١.

(٣) لم نقف على كلامه، ولعله في معانيه، وهو بنحوه في إعراب القرآن له ٤/٤٦٨، وذكر فيه اختيار أبي عبيد السالف.

(٤) في (ظ): كل شيء من سماء وغيرها. بدل: بل هي.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٣٣٨.

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٧٤.

عليه قول ابن عباس ﷺ: من تَفَرُّق[١]. وقال أبو عبيدة[٢]: يقال: تفوَّت الشيءُ، أي: فات.

ثم أَمَر بأنْ ينظروا في خلقه، ليعتبروا به، فيتفكروا في قدرته فقال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: أُردُد طَرْفَك إلى السماء. ويقال: قلِّب البصر في السماء. ويقال: اِجْهَدْ بالنظر إلى السماء. والمعنى متقارب. وإنما قال: «فَارْجِعِ» بالفاء، وليس قبلَه فعلٌ مذكور؛ لأنَّه قال: «ما تَرَى».

والمعنى: انظر ثمَّ ارجع البصر؛ هل ترى من فُطور؟ قاله قتادة[٣].

والفُطور: الشّقوق، عن مجاهد والضحاك. وقال قتادة: من خَلَل. السُّدِّيّ: من خُروق. ابن عباس: من وَهْن[٤]. وأصلُه من التّفطُّر والانفطار، وهو الانشقاق. قال الشاعر:

بَنَى لكُمُ بِلا عَمَدٍ سماءً وَزيَّنَها فما فيها فُطورُ[٥]

وقال آخر:

شَقَقْتِ القلبَ ثمَّ ذَرَرْتِ فيه هَواكِ فَلِيم فالتَامَ الفُطُورُ
تَغَلْغَل حيثُ لم يبلُغْ شرابٌ ولا سَكَرٌ ولم يبلُغْ سرور[٦]

(١) النكت والعيون ٦/ ٥١ .

(٢) في (ظ) أبو عبيد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٥١ ولفظه فيه: معناه فانظر إلى السماء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٥١ .

(٥) هو في البحر ٨/ ٢٩٨ بلفظ: وسواها. بدل: وزينها.

(٦) البيتان لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٥٤ ، والأغاني ٩/ ١٥١ ، باختلاف يسير وتقديم وتأخير. قال الخطيب التبريزي في شرح الحماسة ٣/ ١٦٧ : فليم يحتمل وجهين: أحدهما ـ وهو الأشبه ـ: أن يريد لئم من الالتئام... والآخر: أن يكون ليم من اللأم، أي: لما عوتب كتم ما به فالتأم فطوره .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ «كرتينِ» في موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين، أي: مَرَّةً بعد أخرى. وإنَّما أَمَر بالنظر مرتين؛ لأنَّ الإنسان إذا نظر في الشيء مرةً لا يرى عَيْبَه ما لم ينظر إليه مرةً أُخرى. فأخبرَ تعالى أنَّه ـ وإنْ نظر في السماء مرتين ـ لا يرى فيها عيباً، بل يتَحيَّر بالنظر إليها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ أي: خاشعاً صاغراً متباعداً عن أنْ يَرى شيئاً من ذلك.

يقال: خسأتُ الكلبَ، أي: أبعدته وطردته. وخسأَ الكلبُ بنفسه؛ يتعدَّى ولا يتعدَّى. وانخسأ الكلبُ أيضاً. وخَسَأ بصرُه خَسْأً وخُسوءاً، أي: سَدِر[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾[٢]. وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم يرَ ما يهوى[٣].

﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: قد بلغ الغايةَ في الإعياء. فهو فعيل[٤] بمعنى فاعل؛ من الحُسور الذي هو الإعياء. ويجوز أنْ يكون مفعولاً من حسره بُعْدُ الشيء[٥]، وهو معنى قول ابن عباس. ومنه قولُ الشاعر:

مَن مَدَّ طَرْفاً إلى ما فوقَ غايتِهِ ... ارْتَدّ خَسْآنَ منه الطَّرْفُ قد حَسَرا[٦]

يقال: قد حَسَر بَصَرُه يَحْسِر حُسوراً، أي: كَلَّ وانقطعَ نظرُه من طول مَدًى، وما أشبه ذلك، فهو حَسيرٌ ومحسورٌ أيضاً[٧]. قال:

---

(١) أي: لم يكد يبصر. اللسان (سدر).

(٢) الصحاح (خسأ).

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/٥٨ .

(٤) قوله: فعيل، من (ظ).

(٥) ذكر الاحتمالين الأخيرين الرازي في تفسيره ٣٠/ ٥٩ وعزاهما للواحدي.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٧) الصحاح (حسر).

نظرتُ إليها بالمُحصَّبِ من مِنًى فعادَ إليَّ الطَّرْفُ وهو حسيرُ[١]

وقال آخر يصف ناقة:

فشَطْرَها نَظَرُ العينين محسورُ

نصب «شطرها» على الظرف، أي: نحوَها[٢].

وقال آخر:

والخيلُ شُعْثٌ ما تزال جيادُها حَسْرَى تغادرُ بالطَّريق سِخالَها[٣]

وقيل: إنَّه النادم. ومنه قول الشاعر:

ما أنا اليومَ على شيءٍ خَلَا يا ابنة القين تَوَلَّى بِحَسِرْ[٤]

والمرادُ بـ «كَرَّتَيْنِ» هاهنا التكثير. والدليلُ على ذلك: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وذلك دليلٌ على كثرة النظر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع مصباح، وهو السراج. وتُسَمَّى الكواكبُ مصابيحَ لإضاءتها[٦].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الصحاح (حسر)، وشطر البيت المذكور هو لقيس بن خويلد الهذلي، وصدره: إن الحسير بها داءٌ مخامرها. وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٢ .

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٨١ وفيه: بالخيل شعثاً، بدل: والخيل شعث، و: رُجْعا، بدل: حسرى. وهو برواية المصنف عند الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٤) البيت للمَرَّار بن منقذ كما في المفضليات ص٨٢ . وفيه: مضى، بدل: خلا، و: القوم، بدل: القين، وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٥) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٣٥ ، ومجمع البيان ٢٩/ ٧ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٠ .

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا﴾ أي: جَعَلنا شُهُبَهَا؛ فحذف المضاف. دليلُه ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾[الصافات: ١٠]. وعلى هذا فالمصابيحُ لا تزول ولا يُرجم بها. وقيل: إنَّ الضميرَ راجعٌ إلى المصابيح على أنَّ الرجم من أنفُس الكواكب، ولا يسقطُ الكوكب نفسُه، إنَّما ينفصلُ منه شيءٌ يُرْجَم به من غير أنْ ينقص ضوءه ولا صورته؛ قاله أبو عليّ[١] جواباً لمن قال: كيف تكون زينةً وهي رجومٌ لا تبقى؟

قال المهدَوِيّ: وهذا على أنْ يكون الاستراقُ من موضع الكواكب، والتقديرُ الأوّل على أنْ يكون الاستراقُ من الهوى[٢] الذي هو دونَ موضع الكواكب.

القُشَيْري: وأمثلُ من قول أبي عليّ أنْ نقول: هي زينةٌ قبل أنْ يُرجَم بها الشياطين. والرُّجوم: جمعُ رَجْم، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يرجم به[٣].

قال قتادة: خَلَق اللّه تعالى النجومَ لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها في البرِّ والبحر والأوقات. فمن تأوَّل فيها غيرَ ذلك فقد تكلَّف ما لا علم له به، وتعدَّى وظلم[٤].

وقال محمدُ بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنَّهم يتَّخذونَ الكهانةَ سبيلاً[٥]، ويتَّخذون النُّجومَ عِلَّةً[٦].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: أعتدنا للشياطين أشدَّ الحريق؛ يقال: سَعَرْتُ النار؛ فهي مسعورةٌ وسعير؛ مثل: مقتولة وقتيل. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

---

(١) هو الجبائي. وذكر معنى كلامه الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٧ . وينظر الكشاف ٤/ ١٣٥ .

(٢) كذا في النسخ، ولعلها: الهواء، ويعني به الفراغ.

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٥٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٣ ، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩١٣ (١٦٥٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٠٦) مطولاً.

(٥) لفظة: سبيلاً. من (د) و(م) وليست في باقي النسخ والمصادر.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣١ (١٦٠٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٧١٠)، وفيهما وفي الدر المنثور ٣/ ٣٥: يتبعون الكهنة.

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ يعني الكفّار. ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ أي: صَوْتاً. قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عندَ إلقاء الكفَّار فيها؛ تَشْهَق إليهم شهقةَ البغلة للشعير، ثم تَزفِرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلَّا خاف. وقيل: الشَّهِيقُ من الكفَّار عند إلقائهم في النار[١]؛ قاله عطاء[٢]. والشَّهيق في الصَّدر، والزَّفِير في الحَلْق. وقد مضى في سورة هود[٣].

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تَغْلِي، ومنه قولُ حسان[٤]:

تركتُم قِدْرَكُم لا شيءَ فيها وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفورُ

قال مجاهد: تفورُ بهم كما يَفور الحَبُّ القليلُ في الماء الكثير[٥]. وقال ابن عباس: تَغْلي بهم غليَ المِرْجَل[٦]؛ وهذا من شدَّة لَهَب النار من شدَّة الغضب؛ كما تقول: فلانٌ يفور غَيْظاً.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ يعني: تتقطَّع ويَنْفصِلُ بعضُها من بعض؛ قاله سعيد بن جُبَير[٧]. وقال ابنُ عباس والضَّحَّاك وابنُ زيد: تتفرَّق. «مِنَ الْغَيْظِ»: من شدَّة

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣ .

(٢) وقول عطاء ـ كما ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٦٣ ـ: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقاً.

(٣) ١١/ ٢١١ - ٢١٢ .

(٤) بل هو من قول جبل بن جوال الثعلبي يخاطب به حسان بن ثابت ﷺ. ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٣ ، وديوان حسان ص١١٠ ، وسلف ١١/ ١١٦ .

(٥) ذكره الواحدي ٤/ ٣٢٧، والبغوي ٤/ ٣٧٠ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٦٣ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٥٣ .

الغيظ على أعداء الله تعالى. وقيل: «مِنَ الْغَيظِ»: من الغليان[١]. وأصل «تميّزُ»: تتميز ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾أي: جماعةٌ من الكفار. ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: رسولٌ في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ أنذرنا وخوَّفنا. ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: على ألسنتكم. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يا معشرَ الرسل ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ اعترفوا بتكذيب الرُّسل. ثمَّ اعترفوا بجهلهم[٢]؛ فقالوا وهم في النَّار: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ من النذر ـ يعني الرسل ـ ما جاؤوا به ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ عنهم. قال ابن عباس: لو كنَّا نسمعُ الهدى أو نَعقله[٣]، أو: لو كنَّا نَسمع سماعَ من يَعِي ويفكِّر، أو نعقلُ عقْلَ من يُميِّز وينظر[٤]. ودلَّ هذا على أنَّ الكافر لم يُعْطَ من العقل شيئاً. وقد مضى في «الطُّور» بيانه[٥] والحمد لله.

﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني ما كنَّا من أهل النَّار. وعن أبي سعيدٍ الخُدرِيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد نَدِم الفاجرُ يومَ القيامة قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فقال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾»[٦]. أي: بتكذيبهم الرسل. والذنبُ هاهنا بمعنى الجمع؛ لأنَّ فيه معنى الفعل. يقال: خَرَج عطاءُ النَّاس، أي: أَعْطِيَتهم[٧].

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: فبُعْداً لهم من رحمة الله. وقال سعيدُ بن جُبَير وأبو

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣. وتفسير الطبري ٢٣/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الوجيز للواحدي (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩ .

(٥) ١٩/ ٥٣٤ .

(٦) أخرجه الحارث في مسنده (زوائد الهيثمي) (٨٤٠) من طريق داود بن المحبر. قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ١٣: [أحاديث] كتاب العقل لداود بن المحبر أودعها الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء.

(٧) في (ظ): أعطياتهم، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٦ .

صالح: هو وادٍ في جهنَّم يُقال له: السُّحْق[١]. وقرأ الكسائيُّ وأبو جعفر: «فَسُحُقاً» بضَمِّ الحاء[٢]، ورُوِيَت عن عليّ[٣]. الباقون بإسكانها، وهما لغتان مثل السُّحْتُ والرُّعْبُ. الزَّجَّاج[٤]: وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أسحقَهم الله سُحقاً، أي: باعدَهم بُعْداً. قال امرؤُ القيس:

يجولُ بأطرافِ البلادِ مُغَرِّباً وتَسْحَقُه رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ[٥]

وقال أبو عليّ[٦]: القياسُ: إسحاقاً، فجاء المصدر على الحذف؛ كما قيل:

وإن أهلِك فذلك كان قَدْري[٧]

أي: تقديري.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ من قول خزنة جهنَّم لأهلها[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ نظيرُه: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٦.

(٢) قراءة الكسائي في السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢، وقراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢١٧ من رواية ابن جماز عنه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٩٩.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٧١، وفيه: بآفاق. بدل: بأطراف. قال شارحه: وتسحقه: أي تبعده وتذهب به.

(٦) في الحجة ٦/ ٣٠٧.

(٧) هو عجز بيت صدره: فإن يبرأ فلم أنفث عليه. ذكره صاحب المفضليات ص٧٠، ونسبه لرجل من عبد القيس. وذكره أبو علي في الحجة ٢/ ١٢٩، وابن الشجري في أماليه ٢/ ١١٠ دون نسبة. وفي المصادر: يهلك. بدل: أهلك.

(٨) الكشاف ٤/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٠.

[ق:٣٣]. وقد مضى الكلام فيه. أي: يخافون الله، ويخافون عذابَه الذي هو بالغيب، وهو عذابُ يوم القيامة[١]. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ اللفظُ لفظ الأمر، والمرادُ به الخبر، يعني: إنْ أخفيتُم كلامَكم في أمر محمدٍ ﷺ، أو جهرتم به؛ فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢] يعني بما في القلوب من الخير والشر.

ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبيّ ﷺ ، فيخبرُه جبريلُ عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسِرُّوا قولَكم كي لا يسمعَ ربُّ محمد[٣]، فنزلت: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، يعني: أسِرُّوا قولَكم في أمر محمدٍ ﷺ، وقيل: في سائر الأقوال. أوِ اجْهَرُوا بِهِ: أعلنوه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ذاتُ الصدور ما فيها؛ كما يسمَّى ولدُ المرأة وهو جنين: «ذا بطنها».

ثم قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني: ألَا يعلمُ السرَّ من خَلَق السرَّ؟! يقول: أنا خلقتُ السرَّ في القلب، أفلا أكونُ عالماً بما في قلوب العباد؟! وقال أهل المعاني: إنْ شئتَ جعلت «مَن» اسماً للخالق جلَّ وعزَّ؛ ويكون المعنى، ألا يعلم الخالقُ خلقَه. وإنْ شئتَ جعلتَه اسماً للمخلوق، والمعنى: ألَا يعلم اللهُ مَن خلق. ولابدَّ أنْ يكون الخالقُ عالماً بما خلقَه وما يخلقه[٤].

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٤/٣٢٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٠ .

(٢) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٣٧ ، ومجمع البيان ٢٩/ ١٣ .

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٧٠ ، والوسيط ٤/ ٣٢٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٧١ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٦٨ .

قال ابن المسيّب: بينما رجلٌ واقفٌ باللَّيل في شجرٍ كثير، وقد عَصَفت الريح، فوقعَ في نفس الرجل: أترى الله يعلم ما يَسقط من هذا الورق؟ فنودي من جانب الغَيْضة بصوتٍ عظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايِنِي: مِن أسماء صفات الذَّات ما هو للعلم:

منها: «العَلِيمُ»، ومعناه: تعميمُ جميع المعلومات.

ومنها: «الخَبِيرُ»، ويختصُّ بأنْ يَعلم ما يكون قبلَ أنْ يكون.

ومنها: «الحَكِيم»، ويختصُّ بأنْ يعلمَ دقائقَ الأوصاف.

ومنها: «الشهيد»، ويختصُّ بأنْ يَعلم الغائبَ والحاضر، ومعناه أنَّه لا[1] يغيبُ عنه شيءٌ.

ومنها: «الحافظ»، ويختصُّ بأنَّه لا ينسى.

ومنها: «المُحْصِي»، ويختصُّ بأنَّه لا تَشْغله الكثرةُ عن العلم؛ مثل ضوء النُّور، واشتدادِ الريح، وتساقطِ الأوراق؛ فيَعلمُ عند ذلك [عدد] أجزاءِ الحركات في كلِّ ورقة. وكيف لا يَعلم وهو الذي يَخلق؟! وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلة تستقرُّون[3] عليها. والذَّلُول: المنقادُ الذي يَذِلُّ لك، والمصدر: الذِّل؛ وهو اللِّينُ والانقياد[4]. أي: لم

(١) في (د): إذ لا. وفي (خ) و(ز) و(ف) و(ق) و(م): أن لا. والمثبت من (ظ) وشعب الإيمان.

(٢) شعب الإيمان ١/ ١٢١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ): يستقر.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٦٨ .

يجعل الأرضَ بحيثُ يمتنع المشيُ فيها بالحزونة والغِلظة[١]. وقيل: أي: ثَبَّتها بالجبال لئلَّا تزولَ بأهلها؛ ولو كانت تتكفَّأُ متمايلةً لما كانت منقادةً لنا. وقيل: أشارَ إلى التمكُّن من الزرع والغرس، وشقِّ العيون والأنهار وحفر الآبار.

﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمرُ إباحة[٢]، وفيه إظهار الامتنان. وقيل: هو خبرٌ بلفظ الأمر، أي: لكي تمشوا في أطرافِها ونواحيها، وآكامها وجبالها[٣].

وقال ابن عباس وقتادةُ وبُشَير بن كعب[٤]: «في مَنَاكِبِهَا»: في جبالها[٥]. ورُوِيَ أنَّ بُشَير بن كعب كانت له سُرِّيّة فقال لها: إنْ أخْبرتِني ما مناكب الأرض فأنت حرَّة. فقالت: مناكبُها جبالُها. فصارت حرَّة، فأرادَ أنْ يتزوَّجها، فسألَ أبا الدرداء فقال: دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك[٦].

مجاهد: في أطرافها. وعنه أيضاً: في طرقها وفِجاجها[٧]. وقاله السُّدِّيُّ والحسن[٨]. وقال الكَلْبي: في جوانبها. ومَنْكِبَا الرجل: جانباه[٩]. وأصلُ المَنْكِب الجانب، ومنه مَنْكِب الرجل، والريح النكباء، وتَنَكَّب فلانٌ عن فلان[١٠]. يقول:

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٦٩.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٨.

(٤) هو أبو أيوب الحميري العدوي البصري، العابد، أحد المخضرمين، وثَّقه النسائي وغيره، وكان أحد القراء والزهاد. سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٥٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٨، وأخرجه الطبري بنحوه ٢٣/ ١٢٨. وقول أبي الدرداء: «دع ما يريبك إلى ما لايريبك» هو قطعة من حديث مرفوع أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٣٢٧. عن الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٥، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٩.

(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٤ عن مجاهد والسدي، وذكره عن الحسن البغويُّ ٤/ ٣٧١.

(٩) وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٧٥، ونقله عنه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٨٨، والبغوي ٤/ ٣٧١، والرازي ٣٠/ ٦٩. وقول الكلبي كما ذكره البغوي ٤/ ٣٧١. مناكبها: أطرافها.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٣٧١.

امشوا حيثُ أردتم فقد جعلتُها لكم ذَلولاً لا تمتنع.

وحَكى قتادة عن أبي الجلد: أنَّ الأرضَ أربعةٌ وعشرون ألف فرسخ؛ فللسودان اثنا عشر ألفاً، وللروم ثمانيةُ آلاف، وللفرس ثلاثةُ آلاف، وللعرب ألف[١].

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: مما أحلَّه لكم؛ قاله الحسن. وقيل: مما أنبتَه[٢] لكم. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: المرجع. وقيل: معناه أنَّ الذي خلق السماء لا تفاوتَ فيها، والأرضَ ذَلولاً قادرٌ على أنْ يُنشِركم[٣].

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس: أمِنتم عذابَ من في السماء إنْ عصيتموه[٤]. وقيل: تقديره أمِنتم[٥] من في السماء قدرتُه وسلطانُه وعرشُه ومملكتُه[٦]. وخصَّ السماء ـ وإنْ عَمَّ مُلْكُه ـ تنبيهاً على أنَّ الإله الذي تنفذُ قدرتُه في السماء، لا من يعظِّمونَه في الأرض. وقيل: هو إشارةٌ إلى الملائكة[٧]. وقيل: إلى جبريل، وهو المَلَكُ المُوكَّل بالعذاب[٨].

قلت: ويَحتمل أنْ يكون المعنى: أمنتم خالقَ مَن في السماء أنْ يخسفَ بكم الأرض كما خسفَها بقارون.

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تَذهبُ وتجيء. والمَوْر: الاضطرابُ بالذهاب والمجيء. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٤ .

(٢) في (م) أتيته، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٤/ ٥٥ والكلام منه.

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٣٢٢ .

(٥) في (م) أأمنتم. في الموضعين.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٧٠ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٥ عن ابن بحر.

(٨) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٧٠ .

رَمَيْنَ فأقْصَدْنَ القلوبَ ولن ترى   دماً مائراً إلَّا جَرَى في الحَيَازِمِ[1]

جمع حَيْزوم، وهو وسطُ الصدر. وإذا خُسِف بإنسانٍ دارت به الأرض، فهُو المَوْر.

وقال المحققون: أمنتم مَن فوق السماء؛ كقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي: فوقَها، لا بالمماسَّة والتحيُّز، لكن بالقهر والتدبير. وقيل: معناه: أمنتم مَنْ على السماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها[2]. ومعناه أنَّه مُدبِّرها ومالكُها؛ كما يقال: فلانٌ على العراق والحجاز، أي: واليها وأميرها. والأخبارُ في هذا الباب كثيرةٌ صحيحةٌ منتشرة، مشيرةٌ إلى العلوّ؛ لا يدفعها إلَّا مُلْحِدٌ أو جاهلٌ معاند؛ والمرادُ بها: توقيرُه وتنزيهُه عن السُّفل والتَّحت. ووصفه بالعلوّ والعظمة، لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنَّها صفات الأجسام. وإنَّما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء؛ لأنَّ السماءَ مَهْبِطُ الوحي، ومَنزِلُ القطر، ومَحِلُّ القُدس، ومعدنُ المُطهَّرين من الملائكة، وإليها تُرفعُ أعمالُ العباد، وفوقها عرشُه وجنَّته؛ كما جعلَ الله الكعبةَ قِبلةً للصَّلاة[3]، ولأنَّه خَلقَ الأمكنةَ وهو غير محتاجٍ إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان.

وقرأ قُنْبل عن ابن كَثير: «النُّشور وامنتم» بقلبِ الهمزة الأولى واواً وتخفيف الثانية[4]. وقرأ الكوفيون والبصريون وأهلُ الشام سوى أبي عمرو وهشام بالتحقيق[5]

---

(١) البيت لأبي حية النمري، وهو في الكامل ١/ ١٠٠، والأمالي ٢/ ٢٨١ قال في رغبة الآمل ١/ ٢٣٢: فأقصدن القلوب: أصبنها؛ من قولهم: قصدت الرجل: إذا طعنته أو رميته فلم تخطئ مقاتله. دماً مائراً: سائلاً، من مار الدم يمور: سال.

(٢) ينظر الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٣٢٤، والمفهم ٢/ ١٤٤.

(٣) في (م): للدعاء والصلاة.

(٤) يعني في الوصل. السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): بالتخفيف وهو خطأ.

في الهمزتين، وخفَّف الباقون[١]. وقد تقدَّم جميعُه[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارةً من السماء كما أرسلَها على قوم لوط وأصحاب الفِيل. وقيل: ريحٌ فيها حجارةٌ وحَصْباء. وقيل: سحابٌ فيه حجارة. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري. وقيل: النذيرُ بمعنى المنذر؛ يعني: محمداً ﷺ، أي: فستعلمون صدقَه وعاقبةَ تكذيبكم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم؛ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود، وقومِ لوطٍ، وأصحابِ مَدْيَن، وأصحابِ الرَّسِّ، وقومِ فرعون. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري. وقد تقدَّم[٤].

وأثبتَ وَرْش الياء في «نذيري، ونكيري» في الوصل. وأثبتَها يعقوب في الحالين. وحذفَ الباقون اتِّباعاً للمصحف[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ أي: كما ذلَّل الأرضَ للآدميّ،

---

(١) غير أن أبا عمرو البصري وقالون يدخلان ألفاً بينهما. ولهشام التسهيل والتحقيق مع الإدخال فيهما، ولورش وجه آخر: الإبدال مع القصر. ينظر السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢، والنشر ١/ ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٧٠.

(٤) ١٤/ ٤١٤.

(٥) التيسير ص٢١٣، والنشر ٢/ ٣٨٩.

ذلّل الهواءَ للطيور. و«صَافَّات» أي: باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طيرانها؛ لأنَّهنَّ إذا بسطنَها صَفَفْنَ قوادمها[1] صَفّاً. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يضربْنَ بها جُنُوبَهُنَّ.

قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صافٌّ، وإذا ضَمَّهما فأصابا جَنْبَه: قابضٌ؛ لأنَّه يقبضُهما. قال أبو خِرَاش:

يبادر جُنْحَ الليل فهو مُوَائل[2] يَحُثّ الجناح بالتَّبَسُّطِ والقَبْضِ[3]

وقيل: ويقبضنَ أجنحتَهُنَّ بعد بسطها: إذا وقفنَ من الطيران. وهو معطوفٌ على «صَافَّاتٍ» عطفَ المضارع على اسم الفاعل؛ كما عطفَ اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

باتَ يُغَشِّيها[4] بعَضْبٍ باتر يَقْصِدُ في أسْوُقِها وجائِرِ[5]

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: ما يُمسِكُ الطيرَ في الجوِّ وهي تطير إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: حزبٌ وَمَنَعةٌ لكم[6].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): قوائمها، وفي (ق) قواه، والمثبت من (خ) والكشاف ٤/ ١٣٨، والكلام منه. وقوادم الطير: مقاديم ريشه، وهي عشرٌ في كل جناح، الواحدة قادمة. الصحاح (قدم).

(٢) موائل: من واءل فلان مواءلة ووئالاً: لجأ وخلص، ووائل الطائر: لاوذ بشيءٍ خوفاً من الصقر. المعجم الوسيط (وأل). ووقع في المصادر الآتية: مهابذ بدل: موائل. قال أبو علي القالي: المهابذ: المجاهد في العدو والسير، ويقال: أهذب وأهبذ؛ إذا اجتهد في الإسراع.

(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٩، والكامل ٢/ ٧١٤، والأمالي ١/ ٢٧١.

(٤) في (م) يعشيها. بالمهملة، وكذا رواية البيت في خزانة الأدب ٥/ ١٤٠. قال البغدادي: يعشيها: أي يطعمها العَشَاء.. قال: ورأيت في أمالي ابن الشجري [٢/ ٤٣٧] في نسخة صحيحة قد صححها أبو اليُمن الكندي، وعليها خطوط العلماء وإجازاتهم: «بات يغشيها» بالغين المعجمة من الغِشاء كالغِطاء، بكسر أولهما وزناً ومعنىً، أي: يشملُها ويَعُمُّها.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٢، والعضب: السيف، ويقصد أي: توسَّط ولم يجاوز الحد، وأسوق: جمع قلة لساق، وهي ما بين الركبة والقدم. خزانة الأدب ٥/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٢.

﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فيدفع عنكم ما أرادَ بكم إنْ عصيتُموه. ولفظُ الجُنْد يُوَحَّد؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وهو استفهامُ إنكار، أي: لا جندَ لكم يدفعُ عنكم عذابَ الله ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: مِنْ سوى الرحمن.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ من الشياطين؛ تغرُّهم بأنْ لا عذابَ ولا حساب[1].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: يعطيكم منافعَ الدنيا. وقيل: المطر من آلهتكم .﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ يعني: الله تعالى رزقَه .﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: تمادَوا وأصروا. ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: طغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحق.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر؛ «مُكِبًّا» أي: مُنَكِّساً رأسَه لا ينظر أمامَه ولا يمينَه ولا شمالَه؛ فهو لا يأمنُ من العثور والانكباب على وجهه؛ كمن يمشي سوِيّاً معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله[2]. قال ابن عباس: هذا في الدنيا. ويجوزُ أنْ يريدَ به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسِفُ[3]؛ فلا يزال يَنْكبُّ على وجهه، وأنَّه ليس كالرجل السوِيِّ الصحيح البصر[4] الماشي في الطريق المهتدي له. وقال قتادة: هو الكافر أكبَّ على معاصي الله في الدنيا، فحشَره الله يومَ القيامة على وجهه. وقال ابن عباس والكَلْبيّ: عَنَى بالذي يمشي مُكِبّاً على وجهه أبا جهل، وبالذي يمشي سَوِيّاً رسولَ الله ﷺ.

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٣٠، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٢ بنحوه.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ٥٦.

(٣) العسف والاعتساف: السير بغير هداية والأخذ على غير طريق. اللسان (عسف)

(٤) في (د) و(ق) و(م): البصير، وفي (ز): البصري، وفي (ظ) الباصر والمثبت من (خ) و(ف) وهو الموافق للكشاف ٤/ ١٣٩. والكلام منه.

وقيل: أبو بكر. وقيل: حمزة[١]. وقيل: عمَّار بن ياسِر؛ قاله عكرمة[٢].

وقيل: هو عامٌّ في الكافر والمؤمن؛ أي: إنَّ الكافرَ لا يدري أعلى حقٍّ هو أم على باطل، أي: أَهذا الكافرُ أهدى، أو المسلمُ الذي يمشي سَوِيّاً معتدلاً يُبصرُ الطريقَ وهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام؟[٣].

ويقال: أكبَّ الرجلُ على وجهه؛ فيما لا يتعدَّى بالألف. فإذا تعدَّى قيل: كبَّه الله لوجهه؛ بغير ألف[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أمر نبيَّه أنْ يُعرِّفَهُم قُبح شركهم مع اعترافهم بأنَّ اللهَ خلقَهم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني القلوب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: لا تشكرون هذه النِّعم، ولا تُوحِّدون الله تعالى[٥]. تقول: قلَّما أفعلُ كذا، أي: لا أفعله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقَكم في الأرض؛ قاله ابن عباس. وقيل: نشرَكُم فيها وفرَّقكُم على ظهرها؛ قاله ابن شجرة[٦]. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حتى يجازِيَ كُلًّا بعمله.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٩، دون قوله: وقيل: أبو بكر.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٥٦.

(٣) في (خ) و(ز) و(ف): وهو على طريق مستقيم وهو الإسلام.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٣.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٣٣٠.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٥٦.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: متى يوم القيامة؟ ومتى هذا العذابُ الذي تَعِدوننا به؟ وهذا استهزاءٌ منهم. وقد تقدَّم(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: عِلْمُ وقتِ قيام الساعة عند الله؛ فلا يَعْلمه غيره. نظيرُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧] الآية.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوِّف ومُعلم لكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ مصدرٌ بمعنى مُزْدَلفاً، أي: قريباً؛ قاله مجاهد(٢). الحسن: عِياناً(٣). وأكثر المفسرين على أنَّ المعنى: فلمَّا رأوه يعني العذاب؛ وهو عذابُ الآخرة. وقال مجاهد: يعني عذابَ بدر(٤). وقيل: أي: رأوا ما وُعِدوا من الحشر قريباً منهم. ودلَّ عليه ﴿تُحْشَرُونَ﴾. وقال ابن عباس: لما رأَوا عملَهم السَّيِّىء قريباً.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فُعِلَ بها السوء. وقال الزجاج(٥): تُبُيِّن فيها السوء، أي: ساءَهم ذلك العذاب، وظهر على وجوههم سِمَةٌ تدلُّ على كفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦](٦).

---

(١) ١١/٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/٦٨٦ ، وأخرجه الطبري ٢٣/١٣٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/١٣٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٣ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٠١ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٥٧ .

وقرأ نافعٌ وابن مُحَيْصِن وابنُ عامر والكسائيُّ: «سيئت» بإشمام الضَّمِّ[١]. وكَسَر الباقون بغير إشمامٍ طلباً للخِفَّة. ومن ضمَّ لاحظَ الأصل.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قال الفرّاء[٢]: «تَدَّعُونَ»: تفتعلون من الدعاء. وهو قولُ أكثر العلماء، أي: تَتمنَّون وتسألون. وقال ابنُ عباس: تَكْذِبون؛ وتأويلُه: هذا الذي كنتم مِن أجله تَدَّعون الأباطيل والأحاديث؛ قاله الزجاج[٣].

وقراءةُ العامة: «تدَّعون» بالتشديد، وتأويلُه ما ذكرناه. وقرأ قتادةُ وابنُ أبي إسحاق والضَّحَّاك ويعقوب[٤]: «تَدْعون» مخفَّفَةً. قال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦]. وقال الضَّحَّاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال:٣٢][٥].

وقال أبو العباس: «تَدَّعُونَ»: تستعجلون؛ يقال: دعوتُ بكذا: إذا طلبتَه؛ وادَّعيت: افتعلت منه.

النَّحَّاس: «تَدَّعُونَ، وتَدْعُون» بمعنىً واحد؛ كما يقال: قَدَر واقتدَر، وعَدَى واعتَدَى؛ إلَّا أنَّ في «افتعل» معنى شيء بعد شيء، و«فَعَل» يقع عل القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل لهم يا محمد ـ يريدُ مشركي مكَّة، وكانوا يَتمنَّوْن موتَ محمدٍ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ

(١) التيسير ص١٢٥ عن نافع وابن عامر والكسائي.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٧١ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٠١ . وفيه: والأكاذيب. بدل: والأحاديث.

(٤) قراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٨٩ ، وقراءة قتادة والضحاك في تفسير الطبري ٢٣/ ١٣٧ ، والمحتسب ٢/ ٣٢٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٧ .

﴿ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ـ: أرأيتُم إنْ مِتْنَا، أو رُحِمْنَا فأُخِّرت آجالُنا، فمن يجيرُكم من عذاب الله؟ فلا حاجةَ بكم إلى التربُّص بنا، ولا إلى استعجال قيام الساعة.

وأسكنَ الياء في «أهلكني»: ابنُ مُحَيْصِن، والْمُسَيَّبيُّ، وشيبةُ، والأعمشُ، وحمزة[1]. وفتحَها الباقون. وكلُّهم فتحَ الياء في «ومَنْ معيَ» إلَّا أهلَ الكوفة؛ فإنَّهم سكَّنُوها، وفتحَها حَفْص كالجماعة[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قرأ الكِسَائيُّ بالياء على الخبر؛ ورواه[3] عن عليّ. الباقون بالتاء على الخطاب[4]، وهو تهديدٌ لهم. ويقال: لم أخَّر مفعول «آمَنَّا»، وقدَّم مفعول «تَوَكَّلْنَا»، فيقال: لِوُقوع «آمَنَّا» تعريضاً بالكافرين حينَ ورد عقيب ذكرهم، كأنَّه قيل: آمَنَّا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصاً؛ لم نَتَّكِل على ما أنتم مُّكلون عليه من رجالكم وأموالكم؛ قاله الزَّمَخْشَرِيّ[5].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائِراً ذاهباً في الأرض لا تنالُه الدِّلاء. وكان ماؤُهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون[6].

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص٢١٣، وقراءة المسيبي في السبعة ص٤٦٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٣.

(٢) السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص٢١٣.

(٣) في (ظ): وروى، وفي(ق). ورواية.

(٤) السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص٢١٢.

(٥) في الكشاف ٤/ ١٤٠.

(٦) ينظر النكت والعيون ٦/ ٥٧، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٣. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٤: ويشبه أن تكون هاتان عُظْم ماء مكة، وإلا فكانت فيها بئار كثيرة كخم والجفر وغيرهما.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ﴾ أي: جارٍ؛ قاله قتادةُ والضَّحَّاك[1]. فلا بدَّ لهم من أنْ يقولوا: لا يأتينا به إلّا الله؛ فقل لهم: لِم تُشركون به من لا يَقْدر على أنْ يأتِيَكم؟ يقال: غارَ الماءُ يَغُور غوراً، أي: نَضَب. والغَوْر: الغائر؛ وُصِف بالمصدر للمبالغة؛ كما تقول: رجلٌ عَدْلٌ ورِضاً[2]. وقد مضى في سورة الكهف[3]، ومضى القولُ في المعنى في سورة المؤمنون[4]. والحمد لله.

وعن ابن عباس: ﴿بِمَآءٍ مَّعِينِۭ﴾ أي: ظاهرٍ تراهُ العيون؛ فهو مفعول، وقيل: هو من: مَعَن الماءُ، أي: كثُر، فهو على هذا فعيل[5]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ المعنى فمن يأتيكم بماء عَذْب؟[6]. والله أعلم.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ١٣٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٧٦ .

(٣) ١٣/ ٢٨٤ .

(٤) ١٥/ ٢٣ - ٢٤ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٧٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٩ .

تفسير سورة الملك

وهى مكية .

قال أحمد : حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن عباس الجُشَمى ، عن أبى هُرَيرة ، عن رَسُول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شَفَعت لصاحبها حتى غُفر له : ﴿ تبارَكَ الَّذى بِيَده الْمُلْكُ ﴾ » .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث شعبة ، به [(١)] . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وقد روى الطبرانى والحافظ الضياء المقدسى ، من طريق سَلام بن مسكين [(٢)] ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :« سورة فى القرآن خَاصَمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَارَكَ الَّذى بِيَده الْمُلْكُ ﴾ » [(٣)] .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا يحيى بن مالك النُكرى ، عن أبيه ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النَّبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿ تبارَكَ ﴾ حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر » [(٤)] . ثم قال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه . وفى الباب عن أبى هريرة . ثم روى الترمذى أيضاً من طريق ليث بن أبى سليم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿ الٓمٓ . تَنزِيلُ ﴾ [سورة السجدة] ، و﴿تَبَارَكَ الَّذى بِيَده الْمُلْكُ ﴾.وقال ليث عن طاوس: يفضلان كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة [(٥)] .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسين بن عجلان [(٦)] الأصبهانى ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » يعنى : ﴿تَبَارَكَ الَّذى بِيَده الْمُلْكُ ﴾ [(٧)] .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٩١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٨٦) .

(٢) فى أ : « سليمان » .

(٣) المعجم الصغير للطبرانى (١/ ١٧٦) والمختارة للضياء المقدس برقم (١٧٣٨، ١٧٣٩) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٠) وفى إسناده يحيى النكرى ضعيف وذكر الذهبى هذا الحديث من مناكيره فى الميزان .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٢) .

(٦) فى م ، أ ، هـ: « محمد بن الحسن بن علاف » وهوخطأ والمثبت من المعجم الكبير للطبرانى ومن تاريخ أصبهان .

(٧) المعجم الكبير (١١/ ٢٤٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٥) من طريق حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان به ، وقال الحاكم : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى بقوله : « فيه حفص العدنى وهو واه » .

هذا حديث غريب ، وإبراهيم ضعيف ، وقد تقدم مثله فى سورة « يس » ، وقد روى هذا الحديث عبد بن حُمَيد فى مسنده بأبسط من هذا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى . قال : اقرأ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة ، تجادل ــ أو تخاصم ــ يوم القيام عند ربها لقارئها، وتطلب له [أن ينجيه] [١] من عذاب النار ، وينجى بها صاحبها من عذاب القبر ؛ قال رسول الله ﷺ : « لوددتُ أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » [٢] .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ، فى ترجمة أحمد بن نصر بن زياد ، أبى عبد الله القرشى النيسابورى المقرئ الزاهد الفقيه ، أحد الثقات الذين روى عنهم البخارى ومسلم ، لكن فى غير الصحيحين ، وروى عنه الترمذى وابن ماجة وابن خزيمة ، وعليه تفقه فى مذهب أبى عُبَيد بن حَرْبويه ، وخلق سواهم ، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن رجلا ممن كان قبلكم مات ، وليس معه شىء من كتاب الله إلا ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، فلما وضع فى حفرته أتاه المَلَك فثارت السورة فى وجهه ، فقال لها : إنك مِن كتاب الله ، وأنا أكره مساءتك ، وإنى لا أملك لك ولا له ولا لنفسى ضراً ولا نفعاً ، فإن أردت هذا به فانطلقى إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعى له . فتنطلق إلى الرب فتقول : يا رب ، إن فلاناً عَمَد إلىَّ من بين كتابك فتَعَلَّمنى وتلانى أفتحرقه [٣] أنت بالنار وتعذبه وأنا فى جوفه ؟ فإن كنت فاعلا ذاك به فامحنى من كتابك . فيقول : ألا أراك غضبت ؟ فتقول : وحُقّ لى أن أغضب . فيقول : اذهبى فقد وهبته لك ، وشَفّعتك فيه . قال : فتجىء فيخرج الملك ، فيخرج كاسف البال لم يَحْلَ منه بشىء . قال : فتجىء فتضع فاها على فيه ، فتقول : مرحباً بهذا الفم ، فربما تلانى ، ومرحباً بهذا الصدر ، فربما وعانى ، ومرحباً بهاتين القدمين ، فربما قامتا بى . وتؤنسه فى قبره مخافة الوحشة عليه » . قال: فلما حَدّث بهذا رسولُ الله ﷺ لم يبق صغير ولا كبير ولا حُرّ ولا عَبد ، إلا تعلمها ، وسماها رسول الله ﷺ المنجية [٤].

قلت : وهذا حديث منكر جداً ،وفرات بن السائب هذا ضعفه الإمام أحمد ، ويحيى بن معين ، والبخارى ، وأبو حاتم ، والدارقطنى وغير واحد . وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر ، عن الزهرى، من قوله مختصراً . وروى البيهقى فى كتاب « إثبات عذاب القبر » عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا [٥] وقد كتبناه فى كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى ، ولله الحمد [٦] .

---

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) ذكره البوصيرى فى إتحاف المهرة (ق ٢١٤سليمانية) من مسند عبد بن حميد .

(٣) فى أ : « أفتجزيه » .

(٤) تاريخ دمشق (٢/ ٢٥٦ « المخطوط») .

(٥) إثبات عذاب القبر للبيهقى برقم (٩٩) وقد فصل الكلام عليه الفاضل محمد طرهونى فى موسوعة فضائل القرآن (٢/ ١٩٣) .

(٦) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق . ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم ، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] . فسمى الحال الأول ــ وهو العدم ــ موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خُلَيْد ، عن قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بنى آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » .

ورواه مَعْمَر ، عن قتادة (١) .

وقوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عَجْلان : ولم يقل أكثر عملا .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

---

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٩/ ٢) من طريق معمر ، عن قتادة ،ومن طريق سعيد ، عن قتادة به مرسلاً.

وقوله : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والثورى ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق .

وقال السدى : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من خُروق . وقال ابن عباس فى رواية : ﴿ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من وُهِىّ (١) . وقال قتادة : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : هل ترى خَلَلاً يا بن آدم ؟ .

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين . ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس: ذليلا ؟ وقال مجاهد ، وقتادة : صاغراً .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء .

ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللا ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ، ولا يرى نقصاً .

ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا (٢) للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصافات : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠] .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

---

(١) فى هـ ، أ : « من وهاء» والمثبت من تفسير الطبرى . مستفادا من هوامش ط. الشعب .

(٢) فى م : « أى : جعلناها» .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ : قال ابن جرير : يعنى الصياح .

﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ : قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحَبّ القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ : يذكر تعالى عدله فى خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرىّ الطائى قال: أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذروا من أنفسهم » (١). وفى حديث آخر: « لا يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة »(٢).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ .

(١) المسند (٤/ ٢٦٠) .

(٢) فى المسند (٢/ ٥٤١) من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لايدخل أحد النار إلا أرى مقعده من الجنة » وهو فى الصحيح .

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصى ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » [(١)] .

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : قالوا : يا رسول الله ، إنا نكون عندك على حال،فإذا فارقناك كنا على غيره؟ قال : « كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا فى السر والعلانية. قال : « ليس ذلكم النفاق » [(٢)] .

لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عُبَيد فيما نعلمه .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ أى : بما خطر فى القلوب ، ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ** ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله : ﴿ **وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد [(٣)] ولا تضطرب [(٤)] ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا** ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أخبرنى بكر بن عمرو ، أنه سمع عبد الله بن هُبَيْرة يقول : إنه سمع أبا تميم الجَيْشانى يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوح بِطَاناً» .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ،من حديث ابن هبيرة [(٥)] ، وقال الترمذى : حسن صحيح . فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ،عز وجل ، وهو المسَخِّر المسير المسبب . ﴿ **وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ أى : المرجع يوم القيامة .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) مسند البزار برقم(٥٢) « كشف الأستار » وقال الحافظ ابن حجر فى مختصر الزوائد (١/ ٦٧) : « الحارث له مناكير وإن أخرج له فى الصحيح » .

(٣) فى أ : «لا تميد» . (٤) فى م: « لاتضطرب ولا تميد » .

(٥) المسند (١/ ٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٦٤) .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : الجبال .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن حكام الأزدى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن بشير بن كعب: أنه قرأ هذه الآية: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ فقال لأم ولد له: إن علمت ﴿ مَنَاكِبِهَا﴾ فأنت عتيقة . فقالت : هى الجبال . فسأل أبو الدرداء فقال : هى الجبال .

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ .

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر:٤٥] .

وقال هاهنا : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجىء وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء:٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ،﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته. وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٧٩] .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ

وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، مُنكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ** ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** ﴾ ؟ أي : من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أي : لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أي : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ **بَل لَّجُّوا** ﴾ أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ **فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ** ﴾ أي : معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، [أي] [(١)] : لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ ؟ : وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مُكبّا على وجهه ، أي : يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه ، أي : لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى ﴿ **أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا** ﴾ أي : منتصب القامة ﴿ **عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أي : على طريق واضح بين ، وهو في نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكونون في الآخرة . فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم ، مُفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** ﴾ [الصافات : ٢٢ـ ٢٦] .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا ابن نُمَير ، حدثنا إسماعيل ، عن نُفَيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » [(٢)] .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طريق [يونس بن محمد ، عن شيبان ، عن قتادة ، عن

---

(١) زيادة من م .

(٢) المسند (٣/ ١٦٧) .

أنس ، به نحوه][1] [2] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ ﴾ أى : ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : ما أقل تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم ، فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ أى : بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : تُجمَعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين المعاد المستبعدين وقوعه : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: متى [يقع] [3] هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، عز وجل ، لكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أديته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا [4] وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر:٤٧ ، ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : خلّصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكَال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه

(١) زيادة من م، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م :« ما عملوا » وهوخطأ .

توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] . ولهذا قال : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ .

ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنَال بالفئوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر : عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ ؟ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه [أن] (١) أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

[آخر تفسير سورة « تبارك » ، ولله الحمد] (٢)

---

(١) زيادة من أ .

(٢) زيادة من م ، وفى أ : « آخر تفسير سورة الملك ولله الحمد والثناء الحسن الجميل » .

٦٧ ـــ سورة الملك

(مكية وهى ثلاثون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٦٧ الملك

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٦٧ الملك

﴿سورة الملك مكيـة وتسمى الواقية والمنجية لأنها تقى وتنجى قارئها من عذاب القبر وآياتها ثلاثون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (تبارك الذى بيده الملك) البركة والنماء والزيادة حسيـة كانت أو عقليةوكثرة الخيرودوامه أيضاًونسبتها إلىالله عزوجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله وصيغة التفاعل للمبالغة فى ذلك فإن مالا يتصور نسبته إليه تعالى من الصيغ كالتكبرونحوه إنماتنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها وعلى الثانى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته منفنون الخيرات والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئاً فشيئاً وآنا فآنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وإنبائها عن نهاية التعظيم لميجز استعمالهافى حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تبارك وتعالى وإسنادها إلى الموصول للاستشهاد بما فى حيز الصلة على تحقق مضمونها واليد مجاز عن القدرة التامة والاستيلاء الكامل أى تعالىوتعاظم بالذات عن كل ماسواه ذاتاً وصفة وفعلا الذى بقبضةقدرته التصرف

* الكلى فى كل الأمور (وهو على كل شىء) من الأشياء (قدير) مبالغ فى القدرة عليه يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة والجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضمونها مفيدة لجريان

٢ أحكام ملكه تعالى فى جلائل الأمور ودقائقها وقوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة) شروع فى تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الأول داخل معه فى حكم الشهادة بتعاليه تعالى والموت عند أصحابنا صفة وجودية مضادة للحياة وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه تعالى خلق الموت فى صورة كبش أملح لايمربشىء ولايجد رائحتهشىء إلا مات وخلق الحياة فى صورة فرس بلقاء لاتمر بشىء ولا يجد رائحتها شىء إلا حيى فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير وقيل هو عدم الحياة فمعنى خلقه حينئذ تقديره أو إزالة الحياة وأياً ما كان فالأقرب أن المراد به الموت الطارىء وبالحياة

* ماقبله وما بعده لظهور مداريتهما لما ينطق به قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فإن استدعاء ملاحظتهما لإحسان العمل مما لاريب فيه مع أن نفس العمل لا يتحقق بدون الحياة الدنيوية وتقديم الموت لكونه

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾

٦٧ الملك

أدعى إلى إحسان العمل واللام متعلقة بخلق أى خلق موتكم وحياتكم على أن الألف واللام عوض عن المضاف إليه ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت طبقات علومكم وأعمالكم فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فإن لكل من القلب والقالب عملا خاصاً به فكما أن الأول أشرف من الثانى كذلك الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد إثر ذى أثير وإنما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنع الله تعالى والتدبر فى آياته المنصوبة فى الأنفس والآفاق وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب ضرورة أن أحداً لا يقدر على أن يعمل بجوارحه كل يوم مثل عمل أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم إيراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل وقيل بطريق الاستعارة التبعية وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لهم باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلى من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة فى الباقين أيضاً لكمال تعاضد الموجبات له وأما الإعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن الانتظام فى سلك الغاية للأفعال الإلهية وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب وفيه من الترغيب فى الترقى إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها ما لا يخفى (وهو العزيز) الغالب الذى لا يفوته من أساء العمل (الغفور) لمن تاب منهم (الذى خلق سبع سموات) قيل هو نعت للعزيز الغفور أو بيان أو بدل والأوجه أنه نصب أو رفع على المدح متعلق بالموصولين السابقين معنى وإن كان منقطعاً عنهما إعراباً كما مر تفصيله فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب من سورة البقرة منتظم معهما فى سلك الشهادة بتعاليه إليه سبحانه ومع الموصول الثانى فى كونه مداراً للبلوى كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقوله تعالى (طباقا) صفة لسبع سموات أى مطابقة على أنه مصدر طابقت النعل إذا خصفتها وصف به المفعول أو مصدر مؤكد لمحذوف هو صفتها أى طوبقت طباقا وقوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) صفة أخرى لسبع سموات وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم والإشعار بعلة الحكم وبأنه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلا وبأن فى إبداعها نعما

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ٦٧ الملك

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ ٦٧ الملك

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ٦٧ الملك

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ٦٧ الملك

جليلة أو استئناف والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب ومن لتأكيد النفي أي ماترى فيه شيئاً من تفاوت أي اختلاف وعدم تناسب من الفوت فإن كلا من المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر وقرىء من تفوت ومعناهما واحد وقوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) متعلق به على معنى التسبيب حيث أخبر أولا بأنه لا تفاوت في خلقهن ثم قيل فارجع البصر حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة ولا يبقى عندك شبهة ما والفطور الشقوق والصدوع جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر (ثم ارجع البصر كرتين) أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في لبيك وسعديك أي رجعة بعد رجعة وإن كثرت (ينقلب إليك البصر خاسئاً) أي بعيداً محروماً من إصابة ما التمسه من العيب والخلل كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والقماءة (وهو حسير) أي كليل لطول المعاودة وكثرة المراجعة وقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا) بيان لكون خلق السموات في غاية الحسن والبهاء إثر بيان خلوها عن شائبة القصور وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها أي وبالله لقد زينا أقرب السموات إلى الأرض (بمصابيح) أي بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السرج من السيارات والثوابت تتراءى كأن كلها مركوزة فيها مع أن بعضها في سائر السموات وما ذاك إلا لأن كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق تحار في فهمه الأفكار وطراز فائق تهيم في دركه الأنظار (وجعلناها رجوماً للشياطين) وجعلنا لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب وقيل معناه وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون ولا يساعده المقام والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مايرجم به (وأعتدنا لهم) في الآخرة (عذاب السعير) بعد الاحتراق في الدنيا بالشهب (وللذين كفروا بربهم) من الشياطين وغيرهم (عذاب جهنم) وقرىء بالنصب على أنه عطف على عذاب السعير وللذين على لهم (وبئس المصير) أي جهنم (إذا ألقوا فيها سمعوا لها) أي لجهنم وهو متعلق بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى (شهيقاً) لأنه في الأصل صفته فلما قدمت صارت حالا أي سمعوا كائناً لها شهيقاً أي صوتاً كصوت الحمير وهو حسيسها المنكر الفظيع قالوا الشهيق في الصدر والزفير في الحلق (وهي تفور) أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه وجعل الشهيق لأهلها منهم وممن طرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى لهم فيها زفير وشهيق يرده قوله تعالى

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ٦٧ الملك

قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ٦٧ الملك

وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ٦٧ الملك

٨ (تكاد تميز) أى تتميز وتتفرق (من الغيظ) أى من شدة الغضب عليهم فإنه صريح فى أنه من آ ثار الغضب عليهم كما فى قوله تعالى سمعوا لها تغيظاً وزفيراً فأين هو من شهيقهم الناشىء من شدة مايقاسونه من العذاب الأليم والجملة إما حال من فاعل تفور أو خبر آخر وقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج) استئناف * مسوق لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها وقيل حال من ضميرها أى كلما ألقى فيها جماعة من الكفرة (سألهم خزنتها) بطريق التوبيخ والتقريع ليزدادوا عذاباً فوق عذاب وحسرة على حسرة (ألم يأتكم * نذير) يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا كما وقع فى سورة الزمر ويعرب عنه جوابهم أيضاً ٩ (قالوا) اعترافاً بأنه تعالى قد أزاح عللهم بالكلية (بلى قد جاءنا نذير) جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة فى الاعتراف بمجىء النذير وتحسراً على مافاتهم من السعادة فى تصديقهم وتمهيداً لبيان ماوقع منهم من التفريط تندما واغتماماً على ذلك أى قال كل فوج من تلك الأفواج قد جاءنا نذير أى واحد حقيقة أو حكما كأنبياء بنى إسرائيل فإنهم حكم نذير واحد فأنذرنا وتلا علينا ما نزل الله تعالى عليه من آياته (فكذبنا) ذلك النذير فى كونه نذيراً من جهته تعالى (وقلنا) فى حق * ماتلاه من الآيات إفراطاً فى التكذيب وتمادياً فى النكير (مانزل الله) على أحد (من شىء) من * الأشياء فضلا عن تنزيل الآيات عليكم (إن أنتم) أى ما أنتم فى ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات * تنذروننا بما فيها (إلا فى ضلال كبير) بعيد عن الحق والصواب وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب * كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله مبالغة فى التكذيب وتمادياً فى التضليل كما ينبىء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فإنه ملوح بعمومه حتما وأما إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فأمر تحقيقى يصار إليه لتهويل ماارتكبوه من الجنايات لامساغ لاعتباره من جهتهم ولا لإدراجه تحت ، عبارتهم كيف لا وهو منوط بملاحظة إجماع النذر على مالا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام وأين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض هذا إذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الأفواج وأما إذا جعل حكاية عن الكل فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف عام أى أهل نذير أو منعوت به فيتفق كلا طرفى الخطاب فى الجمعية ومن اعتبر الجمعية بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الأول ولم يخص اعتبارها بالتقدير الأخير فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون وقد جوز أن يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول على أن مرادهم بالضلال ما كانوا عليه فى الدنيا أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزانة فتأمل وكن على الحق المبين (وقالوا) أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ١٠

فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾	٦٧ الملك
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾	٦٧ الملك
وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾	٦٧ الملك
أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾	٦٧ الملك

* ممن يسمع أو يعقل (لوكنا نسمع) كلاماً (أو نعقل) شيئاً (ماكنا فى أصحاب السعير) أى فى عدادهم ومن اتباعهم وهم الشياطين لقوله تعالى وأعتدنا لهم عذاب السعير كأن الخزنة قالوا لهم فى تضاعيف

١١ التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها حتى لاتكذبوا بها فأجابوا بذلك (فاعترفوا بذنبهم)

* الذى هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله (فسحقاً) بسكون الحاء وقرىء بضمها مصدر مؤكد إما لفعل متعد من المزيد بحذف الزوائد كما فى قعدك الله أى فأسحقهم الله أى أبعدهم من رحمته سحقاً أى إسحاقاً أو لفعل مترتب على ذلك الفعل أى فأسحقهم الله فسحقوا أى بعدوا سحقاً أى بعداً كما فى قول من قال [وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع * من المال إلا مسحت أو مجلف] أى لم تدع فلم يبق

* إلا مسحت الخ وعلى هذين الوجهين قوله تعالى وأنبتها نباتاً حسناً واللام فى قوله تعالى (لأصحاب السعير)

١٢ للبيان كما فى هيت لك ونحوه والمراد بهم الشياطين والداخلون فى عدادهم بطريق التغليب (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخافون عذابه غائباً عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس أو بما خفى منهم

١٣ وهو قلوبهم (لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم (وأجر كبير) لايقادر قدره (وأسروا قولكم أو اجهروا به) بيان لتساوى السر والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى كما فى قوله سواء منكم من أسر القول ومن جهر به قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى المشركين كانوا ينالون من النبى عليه الصلاة والسلام فيوحى إليه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإن الله يعلمه وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدر منه بما يجهرون به مع كونهما فى الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ مامن شىء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر فى القلب يتعلق به الأسرار غالباً فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم

* على تعلقه بحالته الثانية وقوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور) تعليل لما قبله وتقرير له وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبيتها من الجزالة مالا غاية وراءه كأنه قيل إنه مبالغ فى الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لاتكاد تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه ماتسرونه وتجهرون به ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التى فى الصدر

١٤ والمعنى إنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها وقوله تعالى (ألا يعلم من خلق)

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ٦٧ الملك

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ٦٧ الملك

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ٦٧ الملك

وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ٦٧ الملك

إنكار ونفى لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر أى ألا يعلم السر والجهر من أوجد بموجب حكمته
جميع الأشياء التى هما من جملتها وقوله تعالى (وهو اللطيف الخبير) حال من فاعل يعلم مؤكدة للإنكار *
والنفى أى ألا يعلم ذلك والحال أنه المتوصل علمه إلى ماظهر من خلقه وما بطن ويجوز أن يكون من
خلق منصوباً والمعنى ألا يعلم الله من خلقه والحال أنه بهذه المثابة من شمول العلم ولا مساغ لإخلاء العلم
عن المفعول بإجرائه مجرى يعطى ويمنع على معنى ألا يكون عالماً من خلق لأن الخلق لا يتأتى بدون العلم لخلو
الحال حينئذ من الإفادة لأن نظم الكلام حينئذ ألا يكون عالماً وهو مبالغ فى العلم (هو الذى جعل ١٥
لكم الأرض ذلولا) لينة يسهل عليكم السلوك فيها وتقديم لكم على مفعولى الجعل مع أن حقه التأخر
عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر لاسيما عند كون المقدم مما يدل
على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن
والفاء فى قوله تعالى (فامشوا فى مناكبها) لترتيب الأمر على الجعل المذكور أى فاسلكوا فى جوانبها *
أو جبالها وهو مثل لفرط التذليل فإن منكب البعير أرق أعضائه وأنباها عن أن يطأه الراكب بقدمه
فإذا جعل الأرض فى الذل بحيث يتأتى المشى فى مناكبها لم يبق منها شىء لم يتذلل (وكلوا من رزقه) *
والتمسوا من نعم الله تعالى (وإليه النشور) أى المرجع بعد البعث لا إلى غيره فبالغوا فى شكر نعمه *
وآلائه (أأمنتم من فى السماء) أى الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم أو الله سبحانه على تأويل من فى ١٦
السماء أمره وقضاؤه أو على زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنه تعالى فى السماء أى أأمنتم من تزعمون
أنه فى السماء وهو متعال عن المكان (أن يخسف بكم الأرض) بعدما جعلها لكم ذلولا تمشون فى مناكبها *
وتأكلون من رزقه لكفرانكم تلك النعمة أى يقلبها ملتبسة بكم فيغيبكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل
اشتمال من من وقيل هو على حذف الجار أى من أن يخسف (فإذا هى تمور) أى تضطرب ذهاباً ومجيئاً *
على خلاف ما كانت عليه من الذل والاطمئنان (أم أمنتم من فى السماء) إضراب عن التهديد بما ذكر ١٧
وانتقال إلى التهديد بوجه آخر أى بل أأمنتم من فى السماء (أن يرسل عليكم حاصباً) أى حجارة من *
السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل وقيل ريحاً فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها
وقوتها وقيل هى سحاب فيها حجارة (فستعلمون) عن قريب البتة (كيف نذير) أى إنذارى عند مشاهدتكم *
للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرىء فسيعلمون بالياء (ولقد كذب الذين من قبلهم) أى من ١٨
قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة كقوم نوح وعاد وأضرابهم والالتفات إلى الغيبة لإبراز

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ٦٧ الملك
أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ٦٧ الملك
أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ٦٧ الملك

* الإعراض عنهم (فكيف كان نكير) أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب أى كان على غاية الهول والفظاعة وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط وفيه من المبالغة فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٩ وتشديد التهديد لقومه مالا يخفى (أولم يروا) أغفلوا ولم ينظروا (إلى الطير فوقهم صافات) باسطات
* أجنحتهن فى الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً (ويقبضن) ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن حيناً فحيناً للاستظهار به على التحرك وهو السر فى إيثار يقبضن الدال على تجدد القبض
* تارة بعد تارة على قابضات (ما يمسكهن) فى الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى الطبع (إلا الرحمن) الواسع رحمته كل شيء بأن برأهن على أشكال وخصائص وهيأهن للجرى فى الهواء والجملة
* مستأنفة أو حال من الضمير فى يقبضن (إنه بكل شيء بصير) يعلم كيفية إبداع المبدعات وتدبير المصنوعات

٢٠ وقوله تعالى (أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) تبكيت لهم بنفى أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية ويعضده قوله تعالى ما يمسكهن إلا الرحمن أو ناصر من عذابه تعالى كما هو الأنسب بما سيأتى من قوله تعالى إن أمسك رزقه كقوله تعالى أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا فى المعنيين معاً خلا أن الاستفهام هناك متوجه إلى نفس المانع وتحققه وههنا إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه وأم منقطعة مقدرة ببل المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل إلى التبكيت بما ذكر والالتفات للتشديد فى ذلك ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها لأن ما بعدها من الاستفهامية وهى مبتدأ وهذا خبره والموصول مع صلته صفته كما فى قوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده وإيثار هذا لتحقير المشار إليه وينصركم صفة لجند باعتبار لفظه ومن دون الرحمن على الوجه الأول إما حال من فاعل ينصركم أو نعت لمصدره وعلى الثانى متعلق بينصركم كما فى قوله تعالى من ينصرنى من الله فالمعنى بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم ينصركم نصراً كائناً من دون نصره تعالى أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وتوهم أن أم معادلة لقوله تعالى أولم يروا الخ مع القول بأن من
* استفهامية مما لا تقريب له أصلا وقوله تعالى (إن الكافرون إلا فى غرور) اعتراض مقرر لما قبله ناع عليهم ماهم فيه من غاية الضلال أى ماهم فى زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط أو أن آلهتهم تحفظهم من بأس الله إلا فى غرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم فى ذلك شيء يعتد به فى الجملة والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان

٢١ قبائحهم لغيرهم والإظهار فى موقع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام فى قوله تعالى (أم من

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ٦٧ الملك

قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ٦٧ الملك

قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ٦٧ الملك

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ٦٧ الملك

هذا الذى يرزقكم إن أمسك) أى الله عز وجل (رزقه) بإمساك المطر وسائر مباديه كالذى مر
تفصيله خلا أن قوله تعالى (بل لجوا فى عتو ونفور) منبىء عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل إثر *
تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا وتمادوا فى عتو أى عناد واستكبار
وطغيان ونفور أى شراد عن الحق وقوله تعالى (أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى) الخ مثل ضرب ٢٢
للمشرك والموحد توضيحاً لحالها وتحقيقاً لشأن مذهبهما والفاء لترتيب ذلك على ماظهر من سوء حالهم
وخرورهم فى مهاوى الغرور وركوبهم متن عشواء العتو والنفور وعدم اهتدائهم فى مسالك المحاجة إلى
جهة يتوهم فيها رشد فى الجلة فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضائها الصدارة وأما بحسب المعنى
فالأمر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل فهل من يمشى مكباً الخ والمكب
الساقط على وجهه يقال أكب خر على وجهه وحقيقته صار ذا كب ودخل فى الكب كأقشع الغمام أى
صار ذا قشع والمعنى أفمن يمشى وهو يعثر فى كل ساعة ويخر على وجهه فى كل خطوة لتوعر طريقه واختلال
قواه أهدى إلى المقصد الذى يؤمه (أم من يمشى سوياً) أى قائماً سالماً من الخبط والعثار (على صراط *
مستقيم) مستوى الأجزاء لاعوج فيه ولا انحراف قيل خبر من الثانية محذوف لدلالة خبر الأولى عليه
ولا حاجة إلى ذلك فإن الثانية معطوفة على الأولى عطف المفرد على المفرد كقولك أزيد أفضل أم عمرو
وقيل أريد بالمكب الأعمى وبالسوى البصير وقيل من يمشى مكباً هو الذى يحشر على وجهه إلى النار
ومن يمشى سوياً الذى يحشر على قدميه إلى الجنة (قل هو الذى أنشأكم) إنشاء بديعاً (وجعل لكم ٢٣
السمع) لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بما فيها من الأوامر والنواهى وتتعظوا بمواعظها (والأبصار) *
لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤن الله عز وجل (والأفئدة) لتتفكروا بها فيما تسمعونه *
وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية وترتقوا فى معارج الإيمان والطاعة (قليلا ما تشكرون) *
أى باستعمالها فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة وقليلا نعت لمحذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى
شكراً قليلا أو زماناً قليلا تشكرون وقيل القلة عبارة عن العدم (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض) ٢٤
أى خلقكم وكثركم فيها لاغيره (وإليه تحشرون) للجزاء لا إلى غيره اشتراكا أو استقلالا فابنوا أموركم *
على ذلك (ويقولون) من فرط عتوهم وعنادهم (متى هذا الوعد) أى الحشر الموعود كما ينبىء عنه قوله ٢٥
تعالى وإليه تحشرون (إن كنتم صادقين) يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث كانوا *

قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ٦٧ الملك

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ٦٧ الملك

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ٦٧ الملك

قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ٦٧ الملك

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ٦٧ الملك

مشاركين له عليه الصلاة والسلام فى الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف أى
٢٦ إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجىء الساعة والحشر فبينوا وقته (قل إنما العلم) أى العلم بوقته (عند
* الله) عز وجل لا يطلع عليه غيره كقوله تعالى قل إنما علمها عند ربى (وإنما أنا نذير مبين) أنذركم
٢٧ وقوع الموعود لا محالة وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار والفاء فى قوله تعالى (فلما
رأوه) فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود فرأوه فلما
رأوه إلى آخر كما مر تحقيقه فى قوله تعالى فلما رآه مستقراً عنده إلا أن المقدر هناك أمر واقع مرتب
* على ماقبله بالفاء وههنا أمر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى (زلفة) حال
من مفعول رأوا إما بتقدير المضاف أى ذا زلفة وقرب أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى مزدلفاً أو
* على أنه مصدر نعت به مبالغة أو ظرف أى رأوه فى مكان ذى زلفة (سيئت وجوه الذين كفروا)
بأن غشيتها الكآبة ورهقها القتر والذلة ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر وتعليل المساءة
* به (وقيل) توبيخاً لهم وتشديداً لعذابهم (هذا الذى كنتم به توعدون) أى تطلبونه فى الدنيا وتستعجلونه
إنكاراً واستهزاء على أنه تفتعلون من الدعاء وقيل هو من الدعوى أى تدعون أن لا بعث ولا حشر
٢٨ وقرىء تدعون هذا وقد روى عن مجاهد أن الموعود عذاب يوم بدر وهو بعيد (قل أرأيتم) أى أخبرونى
* (إن أهلكنى الله) أى أماتنى والتعبير عنه بالإهلاك لما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى
* المؤمنين بالهلاك (ومن معى) من المؤمنين (أو رحمنا) بتأخير آجالنا فنحن فى جوار رحمته متربصون
* لإحدى الحسنيين (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) أى لا ينجيكم منه أحد متنا أو بقينا ووضع
٢٩ الكافرين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفى الإنجاء به (قل هو الرحمن) أى الذى
* أدعوكم إلى عبادته مولى النعم كلها (آمنا به) وحده لما علمنا أن كل ماسواه إما نعمة أو منعم عليه
* (وعليه توكلنا) لا على غيره أصلا لعلمنا بأن ماعداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضر (فستعلمون)
٣٠ عن قريب البتة (من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم وقرىء فسيعلمون بالياء التحتانية (قل أرأيتم) أى
* أخبرونى (إن أصبح ماؤكم غوراً) أى غائراً فى الأرض بالكلية وقيل بحيث لا تناله الدلاء وهو مصدر



وتسمى تبارك والمانعة والمنجية والمجادلة، فقد أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: كنا نسميها على عهد رسول الله ﷺ المانعة. وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر» وأخرج الطبراني والحاكم وابن مردويه وعبد بن حميد في مسنده واللفظ له عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال: بلى قال اقرأ ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ [الملك: ١] وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له أن تنجيه من عذاب النار وينجو بها صاحبها من عذاب القبر الخبر. وفي جمال القراء تسمى أيضاً الواقية المناعة وهي مكية على الأصح. وقيل غير ثلاث آيات منها وأخرج ابن جويبر في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس، وفي قول غريب إنها مدنية وآيها إحدى ثلاثون آية في المكي والمدني الأخير وثلاثون في الباقي وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما يرجحه. ووجه مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ضرب مثلاً للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبيين عظيمين ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم وهما محتوم لهما بالسعادة وإن أكثر قومهما كفار، افتتح هذه بما يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه. وقيل إن أول هذه متصل بقوله تعالى آخر الطلاق ﴿الله الذي خلق سبع سماوات﴾ [الطلاق: ١٢] لما فيه من مزيد البسط لما يتعلق بذلك وفصل بسورة التحريم لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها، وقد جاء في فضلها أخبار كثيرة منها ما مر آنفاً ومنها ما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له» ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ ومنها ما جاء في حديث رواه الطبراني وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود وآخر رواه عنه جماعة وصححه الحاكم: «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب» وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقرأ ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ كل ليلة لا يدعهما سفر ولا حضر، ولهذا ونحوه قيل يندب قراءتها كل ليلة. والحمد لله الذي وفقني لقراءتها كذلك منذ بلغت سن التمييز إلى اليوم، وأسأل الله تعالى التوفيق لما بعد والقبول. ورأيت في بعض شروح البخاري ندب قراءتها عند رؤية الهلال رجاء الحفظ من المكاره في ذلك الشهر ببركة آيها الثلاثين والله تعالى الموفق.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ البركة النماء والزيادة حسية كانت أو عقلية وكثرة الخير ودوامه، ونسبتها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه جل وعلا عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك كما في نظائره مما لا يتصور نسبته إليه تعالى من الصيغ كالتكبر. وعلى الثاني باعتبار كثرة ما يفيض منه سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات والصيغة حينئذٍ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها. قيل: ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وإنبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها في حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تبارك وتعالى. وقد مرّ تمام الكلام في هذا المقام وإسنادها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيز الصلة على تحقق مضمونها لأن المراد بذلك أنه سبحانه كامل الإحاطة والاستيلاء بناءً على أن بيده الملك استعارة تمثيلية لذلك ولا تجوز في شيء من مفرداته، أو أن الملك على حقيقته واليد مجاز عن الإحاطة والاستيلاء كما قيل، ولاستدعاء ذلك استغناء المتصف به مع افتقار الغير إليه في وجوده وكمالات وجوده كان له اختصاص بالموجود وكذلك في العرف العامي لا يطلق الملك على ما ليس كذلك فلذا قيل هنا في بيان معنى الآية: تعالى وتعاظم بالذات عن كل ما سواه ذاتاً وصفة وفعلاً الكامل الإحاطة الاستيلاء على كل موجود. وقوله تعالى **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** تكميل لذلك لأن القرينة الأولى تدل على التصرف التام في الموجودات على مقتضى إرادته سبحانه ومشيئته من غير منازع ولا مدافع لا متصرف فيها غيره عز وجل كما يؤذن به تقديم الظرف وهذه تدل على القدرة الكاملة الشاملة، ولو اقتصر على الأولى لأوهم أن تصرفه تعالى مقصور على تغيير أحوال الملك كما يشاهد من تصرف الملاك المجازي، فقرنت بالثانية ليؤذن بأنه عزّ سلطانه قادر على التصرف وعلى إيجاد الأعيان المتصرف فيها

وعلى إيجاد عوارضها الذاتية وغيرها، ومن ثم عقب ذلك بالوصف المتضمن للعوارض وهذا ما اختاره العلامة الطيبي، وصاحب الكشاف اختار في القرينة الأولى ما ذكرناه فيها من التخصيص بالموجود فقال: أي تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين الذي بيده الملك على كل موجود لما سمعت، وفي الثانية التخصيص بالمعدوم فقال: وهو على كل ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قدير ووجهه على ما في الكشف أن الشيء وإن كان عاماً في كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه لكن لما قرن بالقدرة اختص بالمعدوم لاستغناء الموجود عن الفاعل عند جمهور المتكلمين القائلين بأن علة الاحتياج الحدوث وعليه الزمخشري وأصحابه، وأما عند القائلين بأن علة الاحتياج الإمكان كالمحققين فلأن الاختيار يستدعي سبق العدم. وجيء بالقرينة الثانية عليه تكميلاً أيضاً لأن الاختصاص بالموجود فيه إيهام نقص واختار صاحب التقريب أن قوله تعالى: **﴿الذي بيده الملك﴾** مطلق. وقوله سبحانه **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** عام لما وضع له الشيء فيكون قد قصد بيان القدرة أولاً وعمومها ثانياً، ولم يرتض صنيع الزمخشري ونظر فيه بأن الشيء إما أن يختص بالموجود أو يشمل الموجود والمعدوم، وعلى المذهبين فلا وجه لتخصيصه بما لم يوجد مع انضمام كل إليه اللهم إلا أن يقال خصصه به ليغاير ما قبله إذ خصصه بالموجود، وفيه أيضاً نظر إذ لو عمم الثاني لتحقق التغاير أيضاً مع أن اليد مجاز عن القدرة فإن تخصصت به كما هو مذهبه تخصص الأول بالمعدوم وإن لم تتخصص لم يتخصص الثاني بالمعدوم. وادعى صاحب الكشف سقوطه بما نقلناه عنه واعترض عليه وأجيب بما لا يخلو عن نظر فليتأمل. ومن الناس من حمل **﴿الملك﴾** على الموجودات وجعل إليه مجازاً عن القدرة فيكون المعنى في قدرته الموجودة وتعقبه بعضهم بأن فيه ركاكة وأشار إلى أن الخلاص منها إما بجعل اليد مجازاً عن التصرف أو بتفسير الملك بالتصرف، وقيل المراد من كون الملك بيده تعالى أنه عز وجل مالكه فمعنى **﴿بيده الملك﴾** مالك الملك وفسر الراغب **﴿الملك﴾** في مثل ذلك بضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، وشاع تخصيصه بعالم الشهادة ويقابله حينئذٍ الملكوت وليس بمراد هنا كما لا يخفى.

وقوله تعالى **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾** شروع في تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الأول وصلته كصلته في الشهادة بتعاليه عز وجل. وجوز الطبرسي كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي الخ. والموت على ما ذهب الكثير من أهل السنة صفة وجودية تضاد الحياة، واستدل على وجوديته بتعلق الخلق به وهو لا يتعلق بالعدمي لأزلية الإعدام. وأما ما روي عن ابن عباس من أنه تعالى خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء إلا مات، وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء لا تمر بشيء ولا يجد رائحتها شيء إلا حيي فهو أشبه شيء بكلام الصوفية لا يعقل ظاهره. وقيل: هو وارد على منهاج التمثيل والتصوير وذهب القدرية وبعض أهل السنة إلى أنه أمر عدمي هو عدم الحياة عما هي من شأنه وهو المتبادر الأقرب وأجيب عن الاستدلال بالآية بأن الخلق فيها بمعنى التقدير وهو يتعلق بالعدمي كما يتعلق بالوجودي، أو أن **﴿الموت﴾** ليس عدماً مطلقاً صرفاً بل هو عدم شيء مخصوص ومثله يتعلق به الخلق والإيجاد بناء على أنه إعطاء الوجود ولو للغير دون إعطاء الوجود للشيء في نفسه، أو أن الخلق بمعنى الإنشاء والإثبات دون الإيجاد وهو بهذا المعنى يجري في العدميات، أو أن الكلام على تقدير مضاف أي خلق أسباب الموت أو أن المراد بخلق **﴿الموت والحياة﴾** خلق زمان ومدة معينة لهما لا يعلمها إلا الله تعالى فإيجادهما عبارة عن إيجاد زمانهما مجازاً ولا يخفى الحال في هذه الاحتمالات. ومن الغريب ما قيل إنه كنى بالموت عن الدنيا إذ هو واقع فيها، وبالحياة عن الآخرة

من حيث لا موت فيها فكأنه قيل الذي خلق الدنيا والآخرة والحق أنهما بمعناهما الحقيقي والموت على ما سمعت والحياة صفة وجودية بلا خلاف وهي ما يصح بوجوده الإحساس أو معنى زائد على العلم والقدرة يوجب للموصوف به حالاً لم يكن قبله من صحة العلم والقدرة، وتقديم الموت على تقدير كونه عدماً مطلقاً أعني عدم الحياة عما هي من شأنه ظاهر لسبقه على الوجود وعلى تقدير كونه العدم اللاحق كما هو الأنسب بالإرادة هنا أعني عدم الحياة عما اتصف بها فلان فيه مزيد عظة وتذكرة وزجر عن ارتكاب المعاصي وحثّ على حسن العمل، ولذا ورد: «أكثروا من ذكر ذم اللذات والحياة» وإن كانت داعية لذلك ضرورة أن من عرف أنها نعمة عظيمة وكان ذا بصيرة عمل شكر الله تعالى عليها لكنها ليست بمثابة الموت في ذلك، فمن زعم أنها لا داعية فيها أصلاً وإنما ذكرت باعتبار توقف العمل عليها لم يدقق النظر. وأل في الموضعين عوض عن المضاف إليه أي الذي خلق موتكم الطارىء وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي أصوبه وأخلصه فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت مراتب أعمالكم. وأصل البلاء الاختبار ولأنه يقتضي عدم العلم بما اختبره وهو غير صحيح في حقه عز وجل وحمل الكلام على ما ذكر، ويرجع ذلك إلى الاستعارة التمثيلية واعتبار الاستعارة التبعية فيه دونها دون في البلاغة والمراد بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل الجوارح ولذا قال ﷺ في الآية: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع في طاعة الله عز وجل» أي أيكم أتمُّ فهماً لما يصدر عن جناب الله تعالى وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه سبحانه، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للمكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات. والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضاً لكمال تعاضد الموجبات له، وأما الإعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج تحت لوقوع فضلاً عن الانتظام في سلك الغاية أو الفرض عند من يراه لأفعال الله عز وجل وإنما هو عمل يصدر عن عامله لسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب، وفيه من الترغيب في الترقي إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائصها ما لا يخفى. وجعل ذلك من باب الزيادة المطلقة أو من باب ﴿أي الفريقين خير مقاماً﴾ [مريم: ٧٣] ليس بذاك و ﴿أيكم أحسن﴾ مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب على أنها مفعول ثان ﴿ليبلوكم﴾ وذلك على ما في الكشاف لتضمنه معنى العلم، وهل يسمى نحو هذا تعليقاً أم لا؟ قيل: فيه خلاف ففي البحر لأبي حيان نقلاً عن أصحابه أنه يسمى بذلك قال: إذا عُدي الفعل إلى اثنين ونصب الأول وجاءت بعده جملة استفهامية أو مقرونة بلام الابتداء أو بحرف نفي كانت الجملة معلقاً عنها الفعل وكانت في موضع نصب كما لو وقعت في موضع المفعولين، وفيها ما يعلق الفعل عن العمل. وفي الكشاف هنا لا يسمى تعليقاً إنما التعليق أن يوقع بعد الفعل الذي يعلق ما يسد مسد المفعولين جميعاً كقولك: علمت أيهما زيد وعلمت أزيد منطلق، وأما إذا ذكر بعده أحد المفعولين نحو علمت القوم أيهم أفضل فلا يكون تعليقاً. والآية من هذا القبيل واعترضه صاحب التقريب بأن العلم مضمر وهو المعلق كما قال الفراء والزجاج ولا يلزم ذكر المفعول معه بل التقدير ليبلوكم فيعلم أيكم أحسن. وأيضاً لا تقع الجملة الاستفهامية مفعولاً ثانياً لعلمت وإنما تقع موقع المفعولين في علمت أيهم خرج لأن المعنى علمت جواب هذا الاستفهام ولا معنى لتقدير مثله في علمته أيهم خرج وأجيب بأن التضمين يغني عن الإضمار وكون الجملة الاستفهامية لا تقع مفعولاً ثانياً ضعيف لأنها إذا وقعت مفعولاً أولاً في نحو ﴿لننزعن من كل شيعة أيهم أشد﴾ [مريم: ٦٩] على معنى لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد كما قال

الخليل، فلم يمتنع وقوعها مفعولاً ثانياً بتأويل ليعلمكم الذين يقال في حقهم ﴿أيهم أحسن﴾ وإليه ذهب الطيبي ثم قال: وقد أنصف صاحب الانتصاف حيث قال: التعليق عن أحد المفعولين فيه خلاف والأصح هو الذي اختاره الزمخشري وهذا النحو عشه فيه يدرج ويدري كيف يدخل ويخرج انتهى. والذي ذكره في سورة هود أن في الآية تعليقاً لما في الاختبار من معنى العلم لأنه طريق إليه ومثله بقوله انظر أيهم أحسن وجهاً فجعلوا بين كلاميه تنافياً وفي الكشف أن كلامه هناك صريح بأن التعليق فيه بمعنى تعليق فعل القلب على ما فيه استفهام وهو بهذا المعنى خاص بفعل القلب من غير تخصيص بالسبعة المتعدية إلى مفعولين. وفي الاستفهام خاصة دون ما فيه لام الابتداء ونحوها صرح به الشيخ ابن الحاجب نصاً فلا ينافي ما ذكر في هذه السورة من أنه ليس بتعليق، فإنما نفي التعليق بالمعنى المشهور. وأما الحمل عن الإضمار في آية هود والتضمين في آية الملك للتفنن فلا وجه له بعد تصريحه بأنه استعارة انتهى. وكذا على هذا لا وجه لكون ما هناك اختياراً لمذهب الفراء والزجاج وما هنا اختيار لمذهب آخر فتدبر وتذكر فإنه كثيراً ما يسأل عن ذلك قديماً وحديثاً والله تعالى الموفق.

﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يعجزه عقاب من أساء ﴿الغَفُورُ﴾ لمن شاء منهم أو لمن تاب على ما اختاره بعضهم لأنه أنسب بالمقام ﴿الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قيل هو نعت للعزيز الغفور أو بيان أو بدل. واختار شيخ الإسلام أنه نصب أو رفع على المدح متعلق بالموصولين السابقين معنى وإن كان منقطعاً عنهما إعراباً منتظم معهما في سلك الشهادة بتعاليمه سبحانه وتعالى ومع الموصول الثاني في كونه مداراً للبلاء كما نطق به قوله تعالى ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [هود: ٧] وقوله تعالى ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لسبع وكون الوصف للمضاف إليه العدد ليس بلازم بل أكثري وهو مصدر طابقت النعل بالنعل إذا خصفتها، وصف به للمبالغة أو على حذف مضاف أي ذات طباق أو بتأويل اسم المفعول أي مطابقة، وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً مؤكداً لمحذوف أي طوبقت طباقاً، والجملة في موضع الصفة. وأن يكون جمع طبق كجمل وجمال أو جمع طبقة كرحبة بفتح الحاء ورحاب والكلام بتقدير مضاف لأنه اسم جامد لا يوصف به أي ذات طباق وقيل يجوز كونه حالاً من ﴿سبع سماوات﴾ لقربه من المعرفة بشموله الكل وعدم فرد وراء ذلك، وتعقب بأن قصارى ذلك بعد القيل والقال أن يكون نحو شمس مما انحصر في فرد وهو لا تجيء الحال المتأخرة منه فلا يقال طلعت علينا شمس مشرقة. وأيًّا ما كان فالمراد كما أخرج عبد بن حميد بعضها فوق بعض، ولا دليل في ذلك على تلاصقها كما زعمه متقدمو الفلاسفة ومن وافقهم من الإسلاميين مخالفين لما نطقت به الأحاديث الصحيحة وإن لم يكفر منكر ذلك فيما أرى. واختلف في موادها فقيل: الأولى من موج مكفوف، والثانية من درة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من زمردة بيضاء. وقيل غير ذلك ولا أظنك تجد خبراً يعول عليه فيما قيل ولو طرت إلى السماء، وأظنك لو وجدت لأولت مع اعتقاد أن الله عز وجل على كل شيء قدير. وقوله تعالى ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ صفة أخرى على ما في الكشاف لسبع سماوات وضع فيها ﴿خلق الرحمن﴾ موضع الضمير الرابط للتعظيم والإشعار بعلة الحكم بحيث يمكن أن يترتب قياس من الشكل الأول ينتج نفي رؤية تفاوت فيها، وبأنه عز وجل خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلاً، وبأن في إبداعها نعماً جليلة. وما ذكره ابن هشام في الباب الرابع من المغني مِن أن الجملة الموصوف بها لا يربطها إلا

الضمير إما مذكوراً وإما مقدراً ليس بحجة على جار الله، والتوفيق بأن ذلك إذا لم يقصد التعظيم ليس بشيء لأنه لا بد له من نكتة سواء كانت التعظيم أو غيره. واستظهر أبو حيان أنه استئناف وإن خلق الرحمن عام للسماوات وغيرها والخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وجوز أن يكون لسيد المخاطبين ﷺ ولعل الأول أولى ومن لتأكيد النفي أي ما ترى شيئاً ﴿من تفاوت﴾ أي اختلاف وعدم تناسب كما قال قتادة وغيره من الفوت فإن كلاً من المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر، وفسر بعضهم التفاوت بتجاوز الشيء الحد الذي يجب له زيادة أو نقصاً وهو المعنى بالاختلاف وعلى ذلك قول بعض الأدباء:

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى ... بهن اختلافاً بل أتين على قدر

وقال السدي: أي من عيب وإليه يرجع قول من قال أي من تفاوت يورث نقصاً وقال عطاء بن يسار: أي من عدم استواء، وقيل أي من اضطراب، وقيل أي من اعوجاج، وقيل أي من تناقض. ومآل الكل ما ذكرنا ومن الغريب ما قاله شيخ الطائفة الكشفية في زماننا من أن بين الأشياء جميعها ربطاً وهو نوع من التجاذب لا يفوت يسببه بعضها عن بعض، وحمل الآية على ذلك وإلى نحو هذا ذهب الفلاسفة اليوم فزعموا أن بين الأجرام علويها وسفليها تجاذباً على مقادير مخصوصة به حفظت أوضاعها وارتبط بعضها ببعض، لكن ذهب بعضهم إلى أن ما به التجاذب والارتباط يضعف قليلاً قليلاً على وجه لا يظهر له أثر إلا في مدد طويلة جداً. واستشعروا من ذلك إلى أنه لا بد من خروج هذا العالم المشاهد عن هذا النظام المحسوس فيحصل التصادم ونحوه بين الأجرام وقالوا إن كان قيامة فهو ذاك ولا يخفى حال ما قاله وما قالوه وإن الآية على ما سمعت بمعزل عن ذلك. وقرأ عبد الله وعلقمة والأسود وابن جبير وطلحة والأعمش «من تَفَوُّتٍ» بشد الواو مصدر تفوت، وحكى أبو زيد عن العرب «في تَفَاوُتٍ» فتح الواو وضمها وكسرها والفتح والكسر شاذان كما في البحر. وقوله تعالى ﴿فَأرْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ متعلق بما قبله على معنى التسبب أي عن الإخبار بذلك فإنه سبب للأمر بالرجوع دفعاً لما يتوهم من الشبهة، فهو في المعنى جواب شرط مقدر أي إن كنت في ريب من ذلك فأرجع البصر حتى يتضح الحال ولا يبقى لك ريب وشبهة في تحقق ما تضمنه ذلك المقال من تناسب خلق الرحمن واستجماعه ما ينبغي له. والفطور قال مجاهد: الشقوق جمع فطر وهو الشق، يقال: فطره فانفطر. والظاهر أن المراد الشق مطلقاً لا الشق طولاً على ما هو أصله كما قال الراغب. وفي معناه قول أبي عبيدة: الصدوع، وأنشدوا قول عبيد الله بن عقبة بن مسعود:

شققت القلب ثم ذررت فيه ... هواك فليط فالتأم الفطور

وقول السدي: الخروق، وأريد بكل ذلك على ما يفهم من كلام بعض الأجلة الخلل وبه فسره قتادة وفسره ابن عباس بالوهن وجملة ﴿هل ترى﴾ الخ قال أبو حيان: في موضع نصب بفعل معلق محذوف أي فانظر هل ترى أو ضمن ﴿فارجع البصر﴾ معنى فانظر ببصرك ﴿ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما قالوا في لبيك وسعديك أي رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة بعضها في أثر بعض، وهذا كما أريد بأصل المثنى التكثير في قوله:

لو عد قبر وقبر كان أكرمهم ... بيتاً وأبعدهم عن منزل الذام

فإنه يريد لو عدت قبور كثيرة وقيل هو على ظاهره وأمر برجع البصر إلى السماء مرتين إذ يمكن غلط في الأولى فيستدرك بالثانية أو الأولى ليرى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها وليس

بشيء. ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ فإنه جواب الأمر والجوابية تقتضي الملازمة وما تضمنه لا يلزم من المرتين غالباً، والمعنى يعد إليك البصر محروماً من إصابة ما التمسه من إصابة العيب والخلل كأنه طرد عنه طرداً بالصغار بناءً على ما قيل إنه مأخوذ من خسأ الكلب المتعدي أي طرده على أنه استعارة، لكن في الصحاح يقال: خسا بصره خسأً وخسوأً أي سدر والسدر تحير النظر فكان تفسير ﴿خاسئاً﴾ بمتحيراً أخذاً له من ذلك أقرب، وكأنهم اختاروا ما تقدم لأن فيه مبالغة وبلاغة ظاهرة مع كونه أبعد عن التكرار مآلاً مع قوله تعالى ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة. يقال: حسر بعيره يحسر حسوراً أي كَلَّ وانقطع فهو حسير ومحسور. وقال الراغب: الحسر كشف الملبس عما عليه، يقال: حسرت عن الذراع أي كشفت، والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر. وناقة حسير انحسر عنها اللحم والقوة، ونوق حسرى، والحاسر أيضاً المعنى لانكشاف قواه ويقال له أيضاً محسور أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره وحسير في الآية يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور، والجملة في موضع الحال كالوصف السابق من البصر ويحتمل أن تكون حالاً من الضمير فيه. وقرأ الخوارزمي عن الكسائي «يَنْقَلِبُ» بالرفع، وخرج على أن الجملة في موضع حال مقدرة. وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ﴾ الخ كلام مسوق للحث على النظر قدرة وامتناناً. وفي الإرشاد بيان لكون خلق السماوات في غاية الحسن والبهاء إثر بيان خلوّها عن شائبة العيب والقصور وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها أي وبالله لقد زينا السماء ﴿الدُّنْيَا﴾ منكم أي التي هي أتم دنواً منكم من غيرها فدنوها بالنسبة إلى ما تحت وأما بالنسبة إلى من حول العرش فبالعكس ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ جمع مصباح وهو السراج، وتجوز به عن الكوكب ثم جمع أو تجوز بالمصابيح ابتداء عن الكواكب، وفسره بعض اللغويين بمقر السراج فيكون حينئذٍ تجوزاً على تجوز ولا حاجة إليه مع تصريحهم بأن المصباح نفس السراج أيضاً وتنكيرها للتعظيم أي بمصابيح عظيمة ليست كمصابيحكم التي تعرفونها. وقيل للتنويع والأول أولى. والظاهر أن المراد الكواكب المضيئة بالليل إضاءة السراج من السيارات والثوابت بناءً على أنها كلها في أفلاك ومجار متفاوتة قرباً وبعداً في ثخن السماء الدنيا، وكون السماء هي الفلك خلاف المعروف عن السلف وإنما هو قول قاله من أراد الجمع بين كلام الفلاسفة الأولى وكلام الشريعة فشاع فيما بين الإسلام واعتقده من اعتقده. وعن عطاء أن الكواكب في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور في أيدي ملائكة وعليه ﴿فزينا السماء بمصابيح﴾ كقول القائل:

زينت السقف بالقناديل

وهو ظاهر لكن الخبر لا يكاد يصح. ومن اعتقد أن السماء الدنيا فلك القمر والست الباقية أفلاك السيارات الباقية على الترتيب المشهور وأن للثوابت فلكاً مخصوصاً يسمى بلسان الشرع بالكرسي، أو جوز أن تكون هذه في فلك زحل وهو السماء السابعة، أو يكون بعضها في فلك وبعضها الآخر في آخر فوقه، أو كل منها في فلك وسماء غير السبع. والاقتصار على العدد القليل لا ينفي الكثير قال: إن تخصيص السماء بالتزيين بها لأنها إنما ترى عليها ولا ترى جرم ما فوقها أو رعاية لمقتضى إفهام العامة لتعذر التمييز بين سماء وسماء عليهم، فهم يرون الكواكب كجواهر متلألئة على بساط الفلك الأزرق الأقرب، ومن اعتبر ما عليه أهل الهيئة اليوم من أن الكواكب فلك عجائب القدرة مواخر في بحر جو الفضاء على وجه مخصوص تقتضيه الحكمة

ومجاريها فيه هي أفلاكها وقد تحركت إذ تحركت في خلاء أو ما يشبهه مع قوى بها تجاذبت وارتبطت ولها حركات على أنفسها وحركات غير ذلك وليست مركوزة كما اشتهر في أجرام صلبة شفافة لا ثقيلة ولا خفيفة تسمى أفلاكاً أو سماء وهي متفاوتة قرباً وبعداً تفاوتاً كلياً، وإن رؤيت كلها قريبة لسبب خفي إلى الآن عليهم حتى أن منها ما لا يصل شعاعه إلينا إلا في عدة سنين مع أن شعاع الشمس وبيننا وبينها أربعة وثلاثون مليوناً من الفراسخ، والمليون ألف ألف يصل إلينا في ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية إلى آخر ما زعموا فيها. قال: يجوز أن يراد بالسماء الدنيا طبقة مخصوصة في هذا الفضاء، وبالمصابيح كواكب فيها نفسها قد زينت تلك الطبقة بها تزيين فضاء دار بطيور يطرن وحائمات فيه مثلاً، أو جميع ما يرى من الكواكب وإن كان فوقها وتزيينها بذلك بإظهاره فيها كما مر. وأنت تعلم أن من تصدى لتطبيق الآيات والأخبار على ما قاله الفلاسفة مطلقاً فقد تصدى لأمر لا يكاد يتم له والله تعالى ورسوله ﷺ أحق بالاتباع. نعم تأويل النقلي إنما ينبغي إذا قام الدليل العقلي على خلاف ما دل عليه، وأكثر أدلة الفلاسفة قاعدة على العجز عن إثباتها إثباتاً صحيحاً ما يخالف أدلة أهل الشرع كما لا يخفى على من استضاء بمصابيحه.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ الضمير للمصابيح على ما هو الظاهر لا للسماء الدنيا على معنى ﴿جعلنا منها﴾ أي من جهتها كما قيل والرجوم جمع رجم بالفتح، وهو مصدر سمي به ما يرجم به أي يرمى فصار له حكم الأسماء الجامدة ولذا جمع وإن كان الأصل في المصادر أنها لا تجمع. وقيل إنه هنا مصدر بمعنى الرجم أيضاً. والمراد بالشياطين مسترقو السمع، ورجمهم على ما اشتهر بانقضاض الشهب المسببة عن الكواكب وإليه ذهب غير واحد من المفسرين وهو مبني على ما قرره الفلاسفة المتقدمون من أن الكواكب نفسها غير منقضة وإنما المنقض شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة لكرة النار لكنها بواسطة تسخين الكواكب للأرض، فالتجوز في إسناد الجعل إليها أو في لفظها وهو مجاز بوسائط. وقال الشهاب: لا مانع من جعل المنقض نفسه من جنس الكواكب وإن خالف اعتقاد الفلاسفة وأهل الهيئة، ولكن في النصوص الإلهية ما فيه رجوم للشياطين انتهى. وأقول لا يخفى أن ذلك المبنى لا يتم أيضاً إلا بثبوت كرة النار الذي لا تراهم يستدلون عليه إلا بحدوث هذه الشهب وسلف الأمة لا يقولون بذلك وكذا أهل الفلسفة الجديدة وهؤلاء لم يحققوا إلى الآن أمر هذه الشهب لكن يميلون إلى أنها أجسام انفصلت عن الكواكب التي يزعمونها عوالم مشتملة على جبال ونحوها اشتمال الأرض على ذلك، وخرجت لبعض الحوادث عن حد القوى الجاذبة لها إلى ما انفصلت عنه ولم تصل إلى حد جذب قوة الأرض لها فبقيت تدور عند منتهى كرة الأرض وما يحيط بها من الهواء، فإذا عرض لها الدخول في هواء الأرض أثناء حركتها احترقت كلاً أو بعضاً كما تحترق بعض الأجسام المحفوظة عن الهواء إذا صادمها الهواء، وربما تصل في بعض حركاتها إلى حد جذب الأرض فتقع عليها. وبعضهم يزعم في الحجارة الساقطة من الجو التي تسمى عندهم بالأبروليت يعنون حجارة الهواء أنها من تلك الأجسام وكل ذلك حديث خرافة ورجم بظنون فاسدة، وقصارى ما يقال في هذه الشهب أنها تحتمل أن تكون ناشئة من أجرام من جنس الكواكب فيها قوة الإحراق سواء كان كل مضيء محرقاً أم لا متكونة في جو هذا الفضاء المشاهد إلا أنها لغاية صغرها لا تشاهد ولو بالنظارات حتى إذا قربت بانقضاضها شوهدت وقد تصادف في انقضاضها أجساماً متصاعدة من الأرض فتحرقها، وربما يتصل الحريق إلى ما يقرب من الأرض جداً وربما تكونت الحجارة من ذلك. ثم إن العقل يجوز أن يكون لها دوران على شكل من الأشكال فترجع بعدما يشاهد

لها من الانقضاض، وأن تتلاشى بعد انقضاضها ويخلق الله تعالى غيرها من مادة لا يعلمها إلا هو عز وجل. والضمير المنصوب في ﴿جعلناها﴾ وإن عاد على المصابيح لكن لم يعد عليها إلا باعتبار الجنس دون خصوصية كونها مزينة بها السماء الدنيا نظير ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ [فاطر: ١١] وعندي درهم ونصفه لما أن التزيين باعتبار الظهور ولا ظهور لهذه الأجرام قبل انقضاضها وإن اعتبر في كونها مصابيح أو كواكب أو نجوماً ظهورها في نفسها ولمن يقرب منها دون خصوصية ظهورها لنا، وفي كونها زينة للسماء كونها زينة لها لها في الجملة فالأمر ظاهر جداً. ويحتمل أن تكون ناشئة من المصابيح المشاهدة المزين بها بأن ينفصل عنها وهي في محلها شعل هي الشهب وما ذاك إلاّ كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة وإليه ذهب الجبائي وكثير وهو محتمل لأن يكون لكل منها قابلية أن ينفصل عنه ذلك، وأن يكون القابلية لبعضها دون بعض وهذا لعدم الاطلاع على حقائق الأجرام العلومية وأحوالها في أنفسها. والكلام نحو قولك أسكن الأمير قبيلة كذا في ثغر كذا وجعلها ترمي بالبنادق من يقرب منه فإنه لا يلزم أن يكون لكل واحد منها قابلية الرمي، ثم لا يلزم أن يكون كل ما يشاهد من الشهب قبساً من المصابيح بل يجوز أن يكون بعضه وهو الذي ترمي به الشياطين منها وبعضه من أمور تحدث في الجو من اصطكاك أو نحوه، وتفاوت الشهب قلة وكثرة يحتمل أن يكون لتفاوت حوادث الجو، وأن يكون لتفاوت الاستراق وليس في الآيات والأخبار ما هو نص في أن الشهب لا تكون إلاّ لرمي الشياطين فيحتمل أن يكون أكثر الشهب من الحوادث الجوية وذوات الأذناب منها في رأي المتقدمين، وهي في أنفسها دون أذنابها نجوم كثيرة جداً تدور لا كما يدور غيرها من النجوم فتقرب تارة وتبعد أخرى فتخرج عن مدارات السيارات إلى حيث لا تشاهد أصلاً عند فلاسفة العصر ولهم فيها كلام أطول من أذنابها. وقد أورد الإمام الرازي في هذا الفصل أسئلة وشبهاً أجاب عنها بما أجاب ونحن فعلنا نحو ذلك فيما تقدم على وجه أتم فليتذكر. وقد أطنبنا هناك الكلام فيما يتعلق بهذا المقام إلاّ أن بعضاً مما ذكرناه هناك فخذ من الموضعين ما صفا ودع ما كدر بعد أن تتأمل حق التأمل وتتدبر. وقيل: معنى الآية وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون المعتقدون تأثير النجوم في السعادة والشقاوة ونحوهما وقد رددنا عليهم أي رد فيما تقدم فارجع إليه أن اردته فإنه نفيس جداً.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ وهيأنا للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ عذاب النار المسعرة المشعلة في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب، ولا يمنع من ذلك أنهم خلقوا من نار لأنهم ليسوا ناراً فقط بل هي أغلب عناصرهم فهي منهم كالتراب من بني آدم فيتأثرون من ذلك على أنه تكون ناراً أقوى من نار. واستدل بالآية على أن النار مخلوقة الآن وعلى أن الشياطين مكلفون ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من غير الشياطين أو منهم ومن غيرهم على أنه تعميم بعد التخصيص لدفع إيهام اختصاص العذاب بهم والجار والمجرور خبر مقدم وقوله تعالى ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأ مؤخر والحصر إضافي بقرينة النصوص الواردة في تعذيب العصاة فلا حجة فيه لمن قال من المرجئة: لا يعذب غير الكفرة. وقرأ الضحاك والأعرج وأسيد بن أسيد المزني وحسن في رواية هارون عنه «عَذَابَ» بالنصب عطفاً على ﴿عذاب السعير﴾ أي وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي جهنم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي وطرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي لجهنم نفسها كما هو الظاهر ويؤيده ما بعد والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من قوله تعالى ﴿شَهِيقاً﴾ لأنه في الأصل صفته فلما صارت حالاً أي ﴿سمعوا﴾ كائناً ﴿لها شهيقا﴾ أي صوتاً كصوت الحمير وهو

حسيسها المنكر الفظيع، ففي ذلك استعارة تصريحية وجوز أن يكون الشهيق لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ومن أنفسهم كقوله تعالى ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ [هود: ١٠٦] والكلام على حذف مضاف أو تجوز في النسبة. واعترض بأن ذلك إنما يكون لهم بعد القرار في النار وبعدما يقال لهم ﴿اخسؤوا فيها﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. وهو بعد ستة آلاف سنة من دخولهم كما في بعض الآثار ورد بأن ذلك إنما يدل على انحصار حالهم حينئذ في الزفير والشهيق لا على عدم وقوعها منهم قبل ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي ينفصل بعضها من بعض ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ من شدة الغضب عليهم قال الراغب ﴿الغيظ﴾ أشد الغضب وقال المرزوقي في الفصيح إنه الغضب أو أسوءه، وقد شبه اشتعال النار بهم في قوة تأثيرها فيهم وإيصال الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه على سبيل الاستعارة التصريحية، ويجوز أن تكون هنا تخييلية تابعة للمكنية بأن تشبه جهنم في شدة غليانها وقوة تأثيرها في أهلها بإنسان شديد الغيظ على غيره مبالغ في إيصال الضرر إليه فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية وهي الغضب الباعث على ذلك، واستعير لتلك الحالة المتوهمة للغيظ. وجوز أن يكون الإسناد في ﴿تكاد تميز﴾ إلى جهنم مجازاً وإنما الإسناد الحقيقي إلى الزبانية، وأن يكون الكلام على تقدير مضاف أي تميز زبانيتها من الغيظ وقيل إن الله تعالى يخلق فيها إدراكاً فتغتاظ عليهم فلا مجاز بوجه من الوجوه وورد في بعض الأخبار ما يؤيد ذلك، وزعم بعضهم أنه لا حاجة لشيء مما ذكر لمكان ﴿تكاد﴾ كما في قوله تعالى ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ [النور: ٣٥] وفيه ما فيه والجملة إما حال من فاعل ﴿تفور﴾ أو خبر آخر وقرأ طلحة «تَتَمَيَّزُ» بتاءين وأبو عمرو «تكاد تميز» بإدغام الدال في التاء والضحاك «تمايز» على وزن تفاعل وأصله تتمايز بتاءين وزيد بن علي وابن أبي عبلة «تَمِيزُ» من ماز ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ استئناف مسوق لبيان حال أهلها بعد بيان نفسها، وقيل لبيان حال آخر من أحوال أهلها وجوز أن تكون الجملة حالاً من ضميرها أي كلما ألقي فيها جماعة من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ وهم مالك وأعوانه عليهم السلام، والسائل يحتمل أن يكون واحداً وأن يكون متعدداً وليس السؤال سؤال استعلام بل هو سؤال توبيخ وتقريع، وفيه عذاب روحاني لهم منضم إلى عذابهم الجسماني ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يتلو عليكم آيات الله وينذركم لقاء يومكم هذا ﴿قالوا﴾ اعترافاً بأنه عزَّ وجلَّ قد أزاح عللهم بالكلية ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ وجمعوا بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسراً على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم، وتمهيداً لما وقع منهم من التفريط تندماً واغتماماً على ذلك، أي قال كل فوج من تلك الأفواج قد جاء لها نذير أي واحد حقيقة أو حكماً كنذر بني اسرائيل فإنهم في حكم نذير واحد فأنذرنا وتلا علينا ما أنزل الله تعالى من آياته.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير من جهته تعالى ﴿وَقُلْنَا﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب وتمادياً في النكير ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء فضلاً عن تنزيل الآيات على بشر مثلكم ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي ما أنتم في ادعاء ما تدعونه ﴿إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحق والصواب. وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله ولو فرضاً ليشمل أول فوج أنذرهم نذير. والأصل أنت وأمثالك ممن ادعى أو يدعي دعواك مبالغة في التكذيب وتمادياً في التضليل كما ينبيء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فإنه ملوح بعمومه حتماً، وأما إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فقيل أمر

تحقيقي يصار إليه لتهويل ما ارتكبوه من الجناية لكن لا مساغ لاعتباره من جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم. كيف لا وهو منوط بملاحظة اجتماع النذر على ما لا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام، وأين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض؟ هذا إذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الأفواج كما هو الظاهر. وأما إذا جعل حكاية عن الكل فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل وهو يستوي فيه الواحد وغيره، أو مصدر مقدر بمضاف عام أي أهل نذير أو منعوت به للمبالغة فيتفق كلا طرفي الخطاب في الجمعية. ويستشعر من بعض العبارات جواز اعتبار الجمعية بأحد الأوجه المذكورة على الوجه الأول أيضاً وفيه بحث. وجوز أن يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول على أن مرادهم بالضلال ما كانوا عليه في الدنيا أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى. وكذا ما قيل من جواز كونه من كلام النذير للكفرة حكوه للخزنة وفي الكشف هذا الوجه فيه تكلف بيّن فإما أن يكون مقول قول محذوف يستدعيه قد جاءنا نذير كأنه قيل بلى قد جاءنا نذير قال **﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** فكذبنا وقلنا وقدم فكذبنا وقلنا تنبيهاً على أن التكذيب لم يكن مقصوراً على قولهم هذا وإما أن يكون التكذيب واقعاً على الجملة أعني **﴿إن أنتم﴾** وقوله سبحانه **﴿وقلنا ما نزل الله من شيء﴾** عطف على **﴿كذبنا﴾** قدم على صلته ليجري مجرى الاعتراض مؤكداً لحكم التكذيب ودالاً على عدم القصر أيضاً والأول أولى انتهى. واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل البعثة وحمل النذير على ما في العقول من الأدلة مما لا يقبله منصف ذوي العقول **﴿وَقَالُوا﴾** أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل كان الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها فأجابوهم بقولهم **﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾** كلاماً **﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾** شيئاً **﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** أي في عدادهم ومن جملتهم والمراد بهم قيل الشياطين لقوله تعالى: **﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾** وقيل الكفار مطلقاً واختصاص اعداد السعير ممنوع لقوله تعالى: ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيرا﴾ [الإنسان: ٤]. والآية لا تدل على الاختصاص وفيه دغدغة لعلك تعرفها مما يأتي إن شاء الله تعالى قريباً فلا تغفل. ونفيهم السماع والعقل لتنزيلهم ما عندهم منهما لعدم انتفاعهم به منزلة العدم، وفي ذلك مع اعتبار عموم المسموع والمعقول ما لا يخفى من المبالغة، واعتبرهما بعض الأجلة خاصين قال: أي لو كنا نسمع كلام النذير فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقه بالمعجز أو نعقل فنفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين ما كنا الخ. وفيه إشارة إلى أن السماع والعقل هنا بمعنى القبول والتفكر و **﴿أو﴾** للترديد لأنه يكفي انتفاء كل منهما لخلاصهم من السعير أو للتنويع فلا ينافي الجمع. وقيل: أشير فيه إلى قسمي الإيمان التقليدي والتحقيقي أو إلى الأحكام التعبدية وغيرها، واستدل بالآية كما قال ابن السمعاني في القواطع من قال بتحكيم العقل. وأنت تعلم أن قصارى ما تشعر به أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة التي بها النجاة من العسير، وأما أنها تدل على أن العقل حاكم كما يقول المعتزلة فلا. واستدل بها أيضاً كما نقل عن ابن المنير على أن السمع أفضل من البصر ومن العجيب استدلال بعضهم بها على أنه لا يقال للكافر عاقل **﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾** الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى ونذره عزَّ وجلَّ **﴿فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** أي فبعداً لهم من رحمته تعالى وهو دعاء عليهم. وقرأ أبو جعفر والكسائي «فَسُحُقاً» بضم الحاء والسحق مطلقاً البعد وانتصابه على أنه مصدر مؤكد أي سحقهم الله تعالى سحقاً قال الشاعر:

يجول بأطراف البلاد مغرباً ... وتسحقه ريح الصبا كل مسحق

وقيل: هو مصدر إما فعل متعد من المزيد بحذف الزوائد كما في قوله:

وإن أهلك فذلك كان قدري

أي تقديري والتقدير فأسحقهم الله سحقاً أي إسحاقاً، أو بفعل مرتب على ذلك الفعل أي فأسحقهم الله تعالى فسحقوا سحقاً كما في قوله:

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ... من المال إلا مسحت أو مجلف

أي لم تدع فلم يبق إلاّ مسحت وإلى أول الوجهين ذهب أبو علي الفارسي والزجاج، وبعد ثبوت الفعل الثلاثي المتعدي كما في البيت وبه قال أبو حيان لا يحتاج إلى ما ذكر. واللام في ﴿**لأصحاب**﴾ للتبيين كما في ﴿هيت لك﴾ [يوسف: ٢٣] وسقيا لك وفي الآية على ما قيل تغليب، ولعل وجهه عند القائل وهو أن السوق يقتضي أن يقال فسحقاً لهم ولأصحاب السعير فإنه تعالى بيّن أولاً أحوال الشياطين حيث قاله سبحانه ﴿**وأعتدنا لهم عذاب السعير**﴾ ثم بيّن أحوال الكفار حيث قال عزَّ وجلَّ ﴿**وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم**﴾ والأوفق بقراءة النصب والأبعد من شبهة التكرار أن يراد بالموصول غير الشياطين ثم قال تعالى شأنه ﴿**فسحقاً لأصحاب السعير**﴾ فكان السوق يقتضي فسحقاً لهم ولأصحاب السعير لكن لم يقل كذلك لأجل التغليب حيث أطلق أصحاب السعير على الشياطين والكفار جميعاً. ولا يضر في هذا دلالة غير آية على عدم اختصاص أصحاب السعير بالشياطين بل يطلق على سائر الكفرة أيضاً لأنه يكفي في التغليب الاختصاص المتبادر من السوق هنا ولا توقف له على عدم جواز إطلاق ذلك على غير الشياطين في شيء من المواضع على أنه يمكن أن يقال لا حاجة إلى التزام اختصاص أصحاب السعير بالشياطين أصلاً ولو بحسب السوق، بلى يكفي لصحة التوجيه كونهم أصيلاً في دخول السعير والكفار ملحقين بهم كما يشعر به قوله تعالى ﴿**ما كنا في أصحاب السعير**﴾ بمعنى في عدادهم وجملتهم فحينئذ يكون الداخل في السعير قسمين. وكان مقتضى الظاهر ذِكرهما معاً في الدعاء عليهم بالسحق كما يشهد به سياق الآية، لكنه عدل وغلب أصحاب السعير الدال على الأصالة على غيره من التوابع وذكر أن في هذا التغلب إيجازاً وهو ظاهر، ومبالغة أي في الإبعاد إذ لو أفرد كل من الفريقين بالذكر لأمكن أن يتوهم تفاوت الإبعادين بأن يكون إبعاد الكفرة دون إبعاد الشياطين على ما يشعر به جعلهم الشياطين أصيلاً وأنفسهم ملحقة بهم، فلما ضموا إليهم في الحكم به دل على أن إبعادهم لم يقصر عن إبعاد أولئك وأيضاً لما غلب سبحانه وتعالى أصحاب السعير وهم الشياطين على الكفار فقد جعل الكفار من قبيل الشياطين فكأنهم هم بأعيانهم، وفيه من المبالغة ما لا يخفى وتعليلاً فإن ترقب الحكم على الوصف وكذا تعلقه به يشعر بعليته له فيشعر ذلك بأن الإبعاد حصل لهم لأجل كونهم أصحاب السعير. وقيل في توجيه التغليب وما فيه من الأمور الثلاثة غير هذا، وقد عدّ ذلك من المشكلات وغدا معتركاً لعلماء الروم وغيرهم من العلماء الأعلام ولعل ما ذكرناه أقرب إلى الأفهام وأبعد عن النزاع والخصام فتأمل والله تعالى ولي الأفهام. ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**﴾ أي يخافون عذابه غائباً عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس غير مرائين أو بما خفي منهم وهو قلوبهم ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ لا يقادر قدره وتقديم المغفرة على الأجر لأن درء المضار أهم من جلب المنافع والجملة المذكورة قيل استئناف بياني وقوله تعالى ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ**﴾ خطاب عام للمكلفين كما في قوله أولاً ﴿**ليبلوكم**﴾ عطف على مقدر قال في الكشف أصل الكلام وللذين كفروا منكم أيها المكلفون المبتلون وللذين يخشون منكم فقطع هذا الثاني

جواباً عن السؤال الذي يقطر من بيان حال الكافرين مع أن ذكرهم بالعرض وهو ماذا حال من أحسن عملاً ومن خرج ممحصاً عند الابتلاء فأجيب بقوله تعالى: ﴿إن الذين يخشون﴾ الخ فأثبت لهم كمال العلم ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨]. وكمال التقوى لقوله تعالى ﴿بالغيب﴾ وفي هذا القطع ترشيح للمعنى المرموز إليه في قوله تعالى: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ أي: ﴿ليبلوكم أيكم﴾ المتقي تخصيصاً لهم بأنهم المقصودون ولو عطف لدل على التساوي، ثم قيل فاتقوه في السر والعلن ودوموا أنتم أيها الخاشعون على خشيتكم وأنيبوا إلى الخشية والتقوى أيها المغترون، واعتقدوا استواء أسراركم وجهركم في علم ربكم فكونوا على حذر واخشوه حق الخشية فقوله تعالى ذلك عطف على هذا المضمر وجوز أن يجعل قوله تعالى ﴿إن الذين﴾ الخ استطراد عقيب ذكر الكفار وجزائهم وقوله سبحانه ﴿وأسروا أو اجهروا﴾ على سبيل الالتفات إلى أصحاب السعير لبعد العهد وزيادة الاختصاص عطفاً على قوله تعالى ﴿وللذين كفروا﴾ كأنه قيل وللكافرين بربهم عذاب جهنم ثم قيل من صفتها كيت وكيت، وإسراركم بالقول وجهركم به أيها الكافرون سيان فلا تفوتوننا جهرتم بالكفر والبغضاء، أو أبطنتموهما فهو من تتمة الوعيد ثم قال والأول املأ بالقبول انتهى ويظهر لي بعد الأول ويؤيد الثاني ما روي عن ابن عباس أنه قال نزلت ﴿وأسروا﴾ الخ في المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ فيوحى إليه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم لبعض ﴿أسروا قولكم﴾ كيلا يسمع رب محمد فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإن الله تعالى يعلمه وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في شمول علمه عزَّ وجلَّ المحيط بجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية، أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ ما من شيء يجهر به إلاّ وهو أو مبادئه مضمر في القلب غالباً فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية.

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبتها من الجزالة ما لا يخفى كأنه قيل إنه عزَّ وجلَّ مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلاً فكيف لا يعلم ما تسرونه وتجهرون به، ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور والمعنى أنه تعالى ﴿عليم﴾ بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها وقوله تعالى ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه جل شأنه ومن فاعل ﴿يعلم﴾ أي ألا يعلم السر والجهر من أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء التي هما من جملتها. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكدة للإنكار والنفي أي ألا يعلم ذلك والحال أنه تعالى المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن وقيل حال من فاعل ﴿خلق﴾ والأول أظهر وقدر مفعول يعلم بما سمعت ولم يجعل الفعل من باب يعطي ويمنع لمكان هذه الحال على ما قيل إذ لو قلت إلا يكون عالماً من هو خالق ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ لم يكن معنى صحيحاً لاعتماد ألا يعلم على الحال والشيء لا يوقت بنفسه فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم كل شيء وأورد عليه أن اللطيف هو العالم بالخفيات فيكون المعنى ألا يكون عالماً وهو عالم بالخفيات وهو مستقيم. وأجيب بأن لا يعلم من ذلك الباب وهو على ما قرره السكاكي مستغرق في المقام الخطابي و ﴿اللطيف الخبير﴾ من يوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن فهما سواء في الاستغراق والإطلاق. وتعقب بأن الاستغراق غير

لازم كما ذكره الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ [القصص: ٢٣]. الآية ولو سلم فالوجه مختلف لأن العموم المستفاد من الثاني ليس العموم المستفاد من الأول، فإن اللطف للعلم بالخفايا خاصة ويلزم العلم بالجلايا من طريق الدلالة، ثم إن الغزالي اعتبر في مفهوم اللطيف مع العلم بخفايا الأمور سلوك سبيل الرفق في إيصال ما يصلحها فلا يتكرر مع الخبير بناء على أنه العالم بالخفايا أيضاً والوجه في الحاجة إلى التقدير كما قال بعض الأئمة إن قوله تعالى: **﴿ألا يعلم﴾** تذييل بعد التعليل بقوله سبحانه **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** فربط المعنى أن يقال **﴿ألا يعلم﴾** هذا الخفي أعني قولكم المسر به أو ألا يعلم سركم وجهركم من يعلم دقائق الخفايا وجلائلها جملها وتفاصيلها، ولو قيل ألا يكون عالماً بليغ العلم من هو كذا لم يرتبط ولكان فيه عي وقصور وجوز كون من مفعول خلق واستظهره أبو حيان أي ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله ورجح الأول بأن فيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع إلى الرب وهو أدل على المحذوف أعني السر والجهر وتعميم المخلوق المتناول لهما تناولاً أولياً ولهذا قدروا من خلق الأشياء دلالة على أن حذف المفعول للتعميم.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلُولاً﴾ غير صعبة يسهل جداً عليكم السلوك فيها فهو فعول للمبالغة في الذل من ذل بالضم ويكسر ضد الصعوبة، ويستعمل المضموم فيما يقابل العز كما يقتضيه كلام القاموس. وقال ابن عطية: الذلول فعول بمعنى مفعول أي مذلولة كركوب وحلوب انتهى. وتعقب بأن فعله قاصر وإنما يعدى بالهمزة أو التضعيف فلا يكون بمعنى المفعول، واستظهر أن مذلولة خطأ وقال بعضهم: يقولون للدابة إذا كانت منقادة غير صعبة ذلول من الذل بالكسر وهو سهولة الانقياد وفي الكلام استعارة وقيل تشبيه بليغ وتقديم لكم على مفعولي الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن ما حقه التقديم إذا

أخر لا سيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن. والفاء في قوله تعالى ﴿فَامْشوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر على الجعل المذكور وزعم بعضهم أنها فصيحة والمراد بمناكبها على ما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما: جبالها. وقال الحسن: طرقها وفجاجها. وأصل المنكب مجتمع ما بين العضد والكتف، واستعماله فيما ذكر على سبيل الاستعارة التصريحية التحقيقية وهي قرينة المكنية في الأرض حيث شبهت بالبعير كما ذكره الخفاجي، ثم قال: فإن قلت كيف تكون مكنية وقد ذكر طرفها الآخر في قوله تعالى ﴿ذلولاً﴾ قلت هو بتقدير أرضا ذلولاً فالمذكور جنس الأرض المطلق، والمشبه هو الفرد الخارجي وهو غير مذكور فيجوز كون ذلولاً استعارة، والمكنية حينئذ هي مدلول الضمير لا المصرح بها في النظم الكريم والمانع من الاستعارة ذكر المشبه بعينه لا بما يصدق عليه فتأمل ولا تغفل. وفي الكشاف: المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وإنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه لم يترك بقية من التذليل، والمراد أنه ليس هنا أمر بالمشي حقيقة وإنما القصد به إلى جعله مثلاً لفرط التذليل سواء كانت المناكب مفسرة بالجبال أو غيرها وسواء كان ما قبل استعارة أو تشبيهاً ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ انتفعوا بما أنعم جل شأنه وكثيراً ما يعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم. وفي أنوار التنزيل أي التمسوا من نعم الله سبحانه وتعالى على أن الأكل مجاز عن الالتماس من قبيل ذكر الملزوم وإرادة اللازم، قيل: وهو المناسب لقوله تعالى ﴿امشوا﴾ وجوز بعض إبقاءه على ظاهره على أن ذلك من قبيل الاكتفاء وليس بذاك، واستدل بالآية على ندب التسبب والكسب وفي الحديث «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف» وهذا لا ينافي التوكل. بل أخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرة قال مر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتاكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عزَّ وجلَّ. وتمام الكلام في هذا الفصل في محله. والمشهور أن الأمر في الموضعين للإباحة وجوز كونه لمطلق الطلب لأن من المشي وما عطف عليه ما هو واجب كما لا يخفى.

﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي المرجع بعد البعث لا إلى غيره عزَّ وجلَّ فبالغوا في شكر نعمه التي منها تذليل الأرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها، ومما يقضي منه العجب جواز عود ضمير رزقه على الأرض باعتبار أنها مبدأ أو عنصر من العناصر، أو ذلول وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث والإضافة لأدنى ملابسة أي من الرزق الذي خلق عليها، وكذا ضمير إليه أي وإلى الأرض نشوركم ورجوعكم فتخرجون من بيوتكم وقصوركم إلى قبوركم. وجملة إليه النشور قيل عطف على الصلة بعد ملاحظة ما ترتب عليها وقيل حال مقدرة من ضمير المخاطبين المرفوع فتدبر ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ كما ذهب إليه غير واحد فقيل على تأويل ﴿من في السماء﴾ أمره سبحانه وقضاؤه يعني أنه من التجوز في الإسناد أو أن فيه مضافاً مقدراً وأصله من في السماء أمره، فلما حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ارتفع واستتر. وقيل: على تقدير خالق من في السماء وقيل: ﴿في﴾ بمعنى على ويراد العلو بالقهر والقدرة وقيل هو مبني على زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنه سبحانه في السماء فكأنه قيل: ﴿أأمنتم﴾ من تزعمون أنه ﴿في السماء﴾ وهو متعال عن المكان وهذا في غاية السخافة فكيف يناسب بناء الكلام في مثل هذا المقام على زعم بعض زعم الجهلة كما لا يخفى على المنصف، أو هو غيره عز شأنه وإليه ذهب بعضهم فقيل: أريد بالموصول الملائكة عليهم السلام

الموكلون بتدبير هذا العالم وقيل جبريل عليه السلام وهو الملك الموكل بالخسف، وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره تعالى والآية عندهم من المتشابه. وقد قال ﷺ: «آمنوا بمتشابهه» ولم يقل أولوه فهم مؤمنون بأنه عزَّ وجلَّ في السماء على المعنى الذي أراده سبحانه مع كمال التنزيه، وحديث الجارية من أقوى الأدلة لهم في هذا الباب وتأويله بما أول ابن الخلف خروج عن دائرة الإنصاف عند أولي الألباب. وفي فتح الباري للحافظ ابن حجر أسند اللالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني قال: اتفاق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير. وأسند البيهقي بسند صحيح عن أحمد بن أبي الحواري عن سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه وهذه طريقة الشافعي وأحمد بن حنبل. وقال إمام الحرمين في الرسالة النظامية: اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله عزَّ وجلَّ، والذي نرتضيه رأياً وندين الله تعالى به عقيدة اتباع سلف الأمة للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً لا وشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، إذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع انتهى. كلام الإمام وقد تقدم النقل في ذلك عن أهل العصر الثالث وهم فقهاء الأمصار كالثوري والأوزاعي ومالك والليث ومن عاصرهم وكذا من أخذ عنهم من الأئمة، فكيف لا يوثق بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام؟ انتهى كلام الحافظ على وجه الاختصار. ونقل نصوص الأئمة في إجراء ذلك على الظاهر مع التنزيه من غير تأويل يفضي إلى مزيد بسط وتطويل وقد ألفت فيه كتب معتبرة مطولة ومختصرة. وفي تنبيه العقول لشيخ مشايخنا إبراهيم الكوراني أن إجماع القرون الثلاثة على إجراء المتشابهات على مواردها مع التنزيه بـ ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] دليل على أن الشارع صلوات الله تعالى وسلامه عليه أراد بها ظواهرها والجزم بصدقه ﷺ دليل على عدم المعارض العقلي الدال على نقيض ما دل عليه الدليل النقلي في نفس الأمر وإن توهمه العاقل في طور النظر والفكر. فمعرفة الله تعالى بهذا النحو من الصفات طور وراء ذلك انتهى. وأنا أقول في التأويل اتباع الظن وقول في الله عزَّ وجلَّ بغير علم وإلا لاتحد ما يذكرونه من المعنى فيه مع أن الأمر ليس كذلك حيث يذكرون في تأويل شيء واحد وجوهاً من الاحتمالات وفيما عليه السلف سلامة من ذلك ويكفي هذا في كونه أحسن المسالك.

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي   دع الجهول يظن الجهل عدوانا

وقرأ نافع «ءأمنتم» بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية وأدخل أبو عمرو وقالون بينهما ألفاً. وقرأ قنبل بإبدال الأولى واواً لضم ما قبلها وهو راء النشور وعنه وعن ورش غير ذلك أيضاً. وقوله تعالى ﴿**أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ**﴾ بدل اشتمال من ﴿**مَن**﴾ وجوز أن يكون على حذف الجار أي من أن يخسف ومحله حينئذ النصب أو الجر والباء للملابسة والأرض مفعول به ليخسف والخسف قد يتعدى قال الراغب يقال خسفه الله تعالى وخسف هو قال تعالى: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ [القصص: ٨١]. أي ءأمنتم من أن يذهب الأرض إلى سفل ملتبسة بكم وزعم بعضهم لزوم لزومه وأن ﴿**الأرض**﴾ نصب بنزع الخافض أي أن يخسف بكم في الأرض وليس كذلك ﴿**فَإِذَا هِيَ**﴾ حين الخسف ﴿**تَمُورُ**﴾ ترتج وتهتز اهتزازاً شديداً، وأصل المور التردد في المجيء

والذهاب ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ اضراب عن الوعيد بما تقدم إلى الوعيد بوجه آخر أي بل أأمنتم من في السماء أن يرسل الخ وقد تقدم الكلام في الحاصب والوعيد بالخسف أولاً لمناسبة ذكر الأرض في قوله تعالى ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ وقد ذكر المنة في تسهيل المشي في مناكبها وذكر إرسال الحاصب ثانياً وهذا في مقابلة الامتنان بقوله تعالى ﴿وكلوا من رزقه﴾ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وفي السماء رزقكم﴾ [الذاريات: ٢٢] قاله في الكشف وفي غرة التنزيل للراغب في وجه تقديم الوعيد بالخسف على التوعد بالحاصب إنه لما كانت الأرض التي مهدها سبحانه وتعالى لهم لاستقرارهم يعبدون فيها خالقها فعبدوا الأصنام التي هي شجرها أو حجرها خوفوا بما هو أقرب إليهم، والتخويف بالحاصب من السماء التي هي مصاعد كلهم الطيبة ومعارج أعمالهم الصالحة لأجل أنهم بدلوهما بسيئات كفرهم وقبائح أعمالهم، ولعل ما أشير إليه أولاً أولى ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري فنذير مصدر مثله في قول حسان:

فأنذر مثلها نصحاً قريشاً ... من الرحمن إن قبلت نذيري

وهو مضاف إلى ياء الضمير والقراء مختلفون فيها فمنهم من حذفها وصلاً وأثبتها وقفاً ومنهم من حذفها في الحالين اكتفاء بالكسرة، والمعنى فستعلمون ما حال إنذاري وقدرتي على إيقاعه عند مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرىء شاذاً «فسيعلمون» بالياء التحتانية ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة قوم نوح وعاد وأضرابهم والالتفات إلى الغيبة لإبرار الإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بإنزال العذاب أي كان على غاية الهول والفظاعة، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط الكلام في ﴿نكير﴾ كالكلام في ﴿نذير﴾ وفي الكلام من المبالغة في تسلية رسول الله ﷺ وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أغفلوا ولم ينظروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها أعني ما تقدم من ريشها صفاً ونصب ﴿صافات﴾ على الحال من الطير أو من ضميرها في ﴿فوقهم﴾ وهو في موضع الحال فتكون الحال متداخلة وجوز أن يكون ظرفاً لصافات أو ليروا ومفعول صافات على الاحتمالات محذوف كما أشرنا إليه، وناسب ذكر الاعتبار بالطير ذكر التوعد بالحاصب لا سيما إذا فسر بالحجارة إذ قد أهلك الله تعالى بذلك أصحاب الفيل حينما رمتهم به الطير، ففي ذلك إذكار قريش بتلك القصة ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممن أجنحتهن إذا ضربن بها جنوبهن والعطف على ﴿صافات﴾ لأن المعنى يصففن ويقبضن، أو صافات وقابضات وعطف الفعل على الاسم في مثله فصيح شائع وعكسه جائز حسن إلاّ عند السهيلي فإنه عنده قبيح نحو قوله:

بات يعشيها بعضب باتر ... يقصد في أسوقها وجائر

فإنه أراد قاصد وجائر ولما كان أصل الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل فيها مد الأطراف وبسطها وكان القبض طارئاً على البسط للاستظهار به على التحرك، جيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل وبما هو أصل بلفظ الاسم على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ويتجدد حيناً إثر حين كما يكون من السابح ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الواسع رحمته كل شيء حيث برأهن عز وجل على أشكال وخصائص وألهمهن حركات قد تأتي منها الجري في الهواء والجملة مستأنفة أو حال من الضمير في ﴿يقبضن﴾ وقرأ الزهري «ما يُمَسِّكُهُن» بالتشديد ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ دقيق

العلم فيعلم سبحانه وتعالى كيفية إبداع المبدعات وتدبير المصنوعات ومن هذا خلقه عز وجل للطير على وجه تأتي به جريه في الجو مع قدرته تعالى أن يجريه فيه بدون ذلك إلا أن الحكمة اقتضت ربط المسببات بأسبابها، وليس فيما ذكرنا نزوع إلى ما يضر من أقوال أهل الطبيعة لأن كون طبيعة الأجسام الثقيلة ما سمعت أمر محسوس لا ينكره إلا من كابر حسه، ومثله كون الإمساك بالسبب السابق وكونه سبباً من آثار رحمته تعالى الواسعة، وأبى ذلك أبو حيان توهماً منه أنه نزوع إلى ما يضر من أقوال أهل الطبيعة وقال: نحن نقول إن أثقل الأشياء إذا أراد الله سبحانه إمساكه في الهواء واستعلاءه إلى العرش كان ذلك، وإذا أراد جل شأنه إنزال ما هو أخف سفلاً إلى منتهى ما ينزل كان أيضاً وليس ذلك لشكل أو ثقل أو خفة ونحن لا ننكر أن الله تعالى على كل شيء قدير وأنه سبحانه فعال لما يريد وأنه لا يتوقف فعله عز وجل على السبب عقلاً بيد أنا نقول إنه تعالى اقتضت حكمته في هذا العالم ذلك الربط، وهو أمر عادي اختاره تعالى حكمة وتفضلاً ولو شاء جل وعلا غيره لكان كما شاء وتقديم ﴿**بكل شيء**﴾ على ﴿**بصير**﴾ للفاصلة أو للحصر رداً على من يزعم عدم شمول علمه تعالى شأنه ﴿**أَمَّنْ هَذَا الذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ**﴾ متعلق عند كثير بقوله سبحانه ﴿**أو لم يروا إلى الطير**﴾ فقال في الإرشاد هو تبكيت لهم بنفي أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية ويعضده قوله تعالى ﴿**ما يمسكهن إلا الرحمن**﴾ أو ناصر من عذابه تعالى كما هو الأنسب بقوله تعالى بعد أن أمسك رزقه كقوله تعالى ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ [الأنبياء: ٤٣] في المعنيين معاً خلا أن الاستفهام هناك متوجه إلى نفس المانع وتحققه وهنا متوجه إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه و ﴿**أم**﴾ منقطعة مقدرة ببل للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل إلى التبكيت بما ذكر والالتفات للتشديد في ذلك، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها لأن بعدها من الاستفهامية والاستفهام لا يدخل على الاستفهام في المعروف عندهم وهي مبتدأ وهذا خبره وفي الموصول هنا الاحتمالات المشهورة في مثله وجملة ﴿**ينصركم**﴾ صفة لجند باعتبار لفظه و ﴿**من دون الرحمن**﴾ على الوجه الأول أما حال من فاعل ﴿**ينصركم**﴾ أو نعت لمصدره وعلى الثاني متعلق بينصركم كما في قوله تعالى ﴿من ينصرني من الله﴾ [هود: ٦٣] فالمعنى من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزاً نصر الرحمن أو ينصركم نصراً كائناً من دون نصره تعالى أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وقوله تعالى ﴿**إِنِ الكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ**﴾ اعتراض مقرر لما قبله ناع عليهم ما هم فيه من غاية الضلال أي ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط، وأن آلهتهم تحفظهم من بأس الله تعالى إلا في غرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم في ذلك شيء يعتد به في الجملة والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم وبيان قبائحهم للغير والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام في قوله تعالى:

﴿**أَمَّنْ هَذَا الذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ**﴾ أي الله عز وجل ﴿**رِزْقَهُ**﴾ بإمساك المطر وسائر مبادئه كالذي مر وقوله تعالى ﴿**بَلْ لَجُوا**﴾ الخ منبىء عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل أثر التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا وتمادوا ﴿**فِي عُتُوٍّ**﴾ في عناد واستكبار وطغيان ﴿**وَنُفُورٍ**﴾ شراد عن الحق لثقله عليهم وجعل ناصر الدين أم من هذا الذين هو الخ عديلاً لقوله تعالى ﴿**أو لم يروا**﴾ على معنى ألم ينظروا في

أمثال هذه الصنائع من القبض والبسط والإمساك وما شاكل ذلك مما يدل على كمال القدرة فلم يعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب أم لكم جند ينصركم من دون الله أن أرسل عليكم عذابه. وقال إنه كقوله تعالى ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ إلاّ أنه أخرج مخرج الاستفهام عن تعيين من ينصرهم اشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم وجعل قوله تعالى ﴿**أم من هذا الذي يرزقكم**﴾ الخ على معنى أم من يشار إليه ويقال هذا الذي يرزقكم فقيل إنه عليه الرحمة جعل في الأولى ﴿**أم**﴾ متصلة و ﴿**من**﴾ استفهامية وجعل في الثانية ﴿**أم**﴾ منقطعة و ﴿**من**﴾ موصولة و ﴿**هذا الذي**﴾ مبتدأ وخبر واقع صلة على تقدير القول وقدر لاستهجان أن يقال الذي هذا الذي يرزقكم ويجعل هذا قائماً مقام الضمير الراجع إلى الموصول الأول ومن قيل مبتدأ خبره محذوف أي رازق لكم، وكأنه أشار بذلك إلى صحة كل من الأمرين في الموضعين. وحديث لزوم اجتماع الاستفهامين في بعض الصور ودخول الاستفهام على الاستفهام قيل عليه إنه ليس بضائر إذ لا مانع من اجتماع الاستفهامين إذا قصد التأكيد وقد نقل ابن الشجري عن جميع البصريين أن أم المنقطعة أبداً بمعنى بل والهمزة أي ولو دخلت على استفهام نحو ﴿أم هل تستوي الظلمات﴾ [الرعد: ١٦] و ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ [النمل: ٨٤] ومذهب غيرهم أنها قد تأتي بمعنى الاستفهام المجرد وروي ذلك عن أبي عبيدة وأنها قد تأتي للإضراب المجرد وقد تتضمنه والاستفهام الإنكاري أو الطلبي. والزمخشري قال في الموضعين: أم من يشار إليه ويقال هذا الذي وجوز في هذا أن يكون إشارة إلى مفروض وأن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجند والناصر والرازق والآية على هذا ليست متعلقة بقوله تعالى ﴿**أو لم يروا**﴾ على ما حققه صاحب الكشف قال بعد أن أوضح كلامه: إذا تقرر ذلك فاعلم أن الذي يقتضيه النظم على هذا التفسير أن يكون قوله تعالى ﴿**أم من هذا الذي هو جند**﴾ متعلقاً بحديث الخسف وقوله سبحانه ﴿**أم من هذا الذي يرزقكم**﴾ بحديث إرسال الحاصب على سبيل النشر كأنه لما قيل ﴿**أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض**﴾ فتضطرب نافرة بعد ما كانت في غاية الذلة عقب بقول أم آمنكم الفوج الذي هو في زعمكم هو جند لكم يمنعكم من عذاب الله تعالى وبأسه على أن ﴿**أم**﴾ منقطعة والاستفهام تهكم، وكذلك لما قيل ﴿**أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا**﴾ بدل ما يرسل عليكم رحمته ذنب بقول أم آمنكم الذي تتوهمون أنه يرزقكم وأما قوله تعالى ﴿**ولقد كذب الذين من قبلهم**﴾ فاعتراض يشد من عضد التحذير وأن في الأمم الماضين المخسوف بهم والمرسل عليهم الحواصب إلى غير ذلك من أنواع عذابه عز وجل ما يسلبهم الطمأنينة والوقار لو اعتبروا، وكذلك قوله سبحانه ﴿**أو لم يروا**﴾ تصوير لقدرته تعالى الباهرة وإن من قدر على ذلك كان الخسف وإرسال الحاصب عليه أهون شيء، وفيه كما أنه بعظيم قدرته وشمول رحمته أمسك الطير كذلك إمساكه العذاب وإلا فهؤلاء يستحقون كل نكال، وفي الاتيان بهذا من التحقير الدال على تسفيه رأيهم وتقدير القول الدال على الزعم والتأكيد بالموصولين الدال على تأكد اعتقادهم في ذلك الباطل إن كان إشارة إلى الأصنام أو كمال التهكم بهم كأنهم محققون معلومون إن كان إشارة إلى فوج مفروض لأن حالهم في الأمن يقتضي ذلك وهذا أبلغ ولذا قدمه الزمخشري ما يقضي منه العجب ويلوح الإعجاز التنزيلي كأنه رأي العين ثم قال: فهذا ما هديت إليه مع الاعتراف بأن الاغتراف من تيار كلام الله تعالى له رجال ما أبعد مثلي عنهم ولكن أتسلى بقول إمامنا الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم... انتهى

ولعمري قد أبدع وتبوأ ما قاله من القبول عند ذوي العقول المحل الأرفع ويعجبني طرف تدر دموعه. على فضله العالي فلله دره. وظاهره أن من في الموضعين فاعل لفعل محذوف دل عليه السياق أعني أمنكم لا مبتدأ خبره محذوف كما قيل فيما سبق وقد جوز في الآية غير ما تقدم من أوجه الإعراب وهو أن يكون من خبراً مقدماً وهذا مبتدأ ورجح على ما مر من عكسه بأنه سالم عما فيه من الإخبار بالمعرفة عن النكرة فإنه غير جائز عند الجمهور وجوازه مذهب سيبويه إذا كان المبتدأ اسم استفهام أو أفعل تفضيل. وقرأ طلحة في الأولى «أَمَنْ» بتخفيف الميم وشدد في الثانية كالجماعة وقوله تعالى ﴿**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحاً لحاليهما في الدنيا وتحقيقاً لشأن مذهبيهما والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حال الكفرة وخرورهم في مهاوي الغروز وركوبهم متن عشواء العتو والنفور، فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضاء الصدارة، وأما بحسب المعنى فالمعنى بالعكس على ما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل فهل من يمشي الخ و ﴿**من**﴾ موصولة مبتدأ و ﴿**يمشي**﴾ صلته و ﴿**مكباً**﴾ حال من الضمير المستتر فيه، وعلى وجهه ظرف لغو متعلق بمكباً أو مستقر حال والأول أولى و ﴿**أهدى**﴾ خبر ﴿**من**﴾ و ﴿**من**﴾ الثانية عطف على الأولى وهو من عطف المفرد على المفرد كما في قولك أزيد أفضل أم عمرو، وقيل: مبتدأ خبره محذوف لدلالة خبر الأولى عليه ولا حاجة إلى ذلك لما سمعت. والمكب الساقط على وجهه يقال: أكب خرّ على وجهه وهو من باب الأفعال، والمشهور أنه لازم وثلاثيه متعد فيقال: كبّه الله تعالى فأكب، وقد جاء ذلك على خلاف القياس وله نظائر يسيرة كأمرت الناقة درت ومر تيهاً وأشنق البعير رفع رأسه وشنقته، واقشع الغيم وقشعته الريح أي أزالته وكشفته، وأنزفت البئر ونزفتها أخرجت ماءها، وأنسل ريش الطائر ونسلته. وقال بعضهم: التحقيق أن الهمزة فيه للصيرورة فمعنى أكب صار ذا كب ودخل فيه كما في ألأم إذا صار لئيماً وانفض إذا صار نافضاً لما في مزودته وليست للمطاوعة، ومطاوع كب إنما هو انكب وقد ذهب إلى ذلك ابن سيده في المحكم تبعاً للجوهري وغيره، وتبعه ابن الحاجب وأكثر شراح المفصل إلا أن كلام بعض الأجلة ظاهر في التسوية بين المطاوعة والصيرورة، وحكى ابن الأعرابي: كبه الله تعالى وأكبه بالتعدية وفي القاموس ما هو نص فيه وعليه لا مخالفة للقياس، والمعنى أفمن يمشي وهو يعثر في كل ساعة ويخرّ على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائه بانخفاض بعض وارتفاع بعض آخر أهدى وأرشد إلى المقصد الذي يؤمه أم من يمشي قائماً سالماً من الخبط والعثار على طريق مستوي الأجزاء لا اعوجاج فيه ولا انحراف؟ ولم يصرح بطريق الكافر بل أشير إليه بما دل على توعره وعدم استقامته، أعني مكباً للإشعار بأن ما عليه لا يليق أن يسمى طريقاً. وفسر بعضهم السوي بمستوي الجهة قليل الانحراف على أن المكب المتعسف الذي ينحرف هكذا وهكذا وهو غير مناسب هنا لأن قوله تعالى ﴿**على صراط مستقيم**﴾ يصير كالمكرر وأفعل هنا مثله على ما في البحر في قولك: العسل أحلى من الخل. والآية على ما روي عن ابن عباس نزلت في أبي جهل عليه اللعنة وحمزة رضي الله تعالى عنه والمراد العموم كما روي عن ابن عباس أيضاً ومجاهد والضحاك. وقال قتادة: نزلت مخبرة عن حال الكافر والمؤمن في الآخرة فالكفار يمشون فيها على وجوههم والمؤمنون يمشون على استقامة. وروي أنه قيل للنبي ﷺ كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادر على أن يمشيه في الآخرة على وجهه». وعليه فلا تمثيل وقيل المراد بالمكب الأعمى وبالسوي البصير وذلك إما من باب الكناية أو من باب المجاز المرسل وهو لا يأبى جعله بعد تمثيلاً لمن سمعت كما هو معلوم في محله.

﴿قُلْ هُوَ الذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ أي القلوب ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي تلك النعم كان تستعملون السمع في سماع الآيات التنزيلية على وجه الانتفاع بها والإبصار في النظر بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجل والأفئدة بالتفكر بها فيما تسمعونه وتشاهدونه ونصب ﴿قليلاً﴾ على أنه صفة مصدر مقدر أي شكراً قليلاً و ﴿ما﴾ مزيدة لتأكيد التقليل والجملة حال مقدرة والقلة على ظاهرها أو بمعنى النفي إن كان الخطاب للكفرة وجوز في الجملة أن تكون مستأنفة والأول أولى ﴿قُلْ هُوَ الذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي خلقكم وكثركم فيها لا غيره عز وجل ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء لا إلى غيره سبحانه اشتراكاً أو استقلالاً فابنوا أمركم على ذلك ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فرط عتوهم ونفورهم ﴿مَتَى هذَا الوَعْدُ﴾ أي الحشر الموعود كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿وإليه تحشرون﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام في الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف أي ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته. ﴿قُلْ إِنَّمَا العِلْمُ﴾ أي العلم بوقته ﴿عِندَ اللهِ﴾ عز وجل لا يطلع عليه غيره عز وجل كقوله تعالى ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أنذركم وقوع الموعود لا محالة وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار والفاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود فرأوه فلما رأوه الخ، وهذا نظير قوله تعالى ﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾ [النمل: ٤٠] إلاَّ أن المقدر هناك أمر واقع مرتب على ما قبله بالفاء وها هنا أمر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول رأوه إما بتقدير المضاف أي ذا زلفة وقرب أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل أي مزدلفاً أو على أنه مصدر نعت به مبالغة أو ظرف أي رأوه في مكان ذي زلفة، وفسر بعضهم الزلفة بالقريب والأمر عليه ظاهر وكذا على ما روي عن ابن زيد من تفسيره بالحاضر. وقال الراغب: الزلفة المنزلة والحظوة وما في الآية قيل معناه زلفة المؤمنين، وقيل زلفة لهم. واستعمل الزلفة في منزلة العذاب كما استعملت البشارة ونحوها من الألفاظ انتهى. ولا زلفة في كلا القولين ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذِينَ كَفَرُوا﴾ سامتها رؤيته بأن غشيتها بسببها الكآبة ورهقها القتر والذلة ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر وتعليل الساءة به وأشم أبو جعفر والحسن وأبو رجاء وشيبة وابن وثاب وطلحة وابن عامر ونافع الكسائي كسر سين «سيئت» الضم ﴿وَقِيلَ﴾ توبيخاً لهم وتشديد العذاب بهم ﴿هَذَا الذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً واستهزاء على أنه تفتعلون من الدعاء والباء صلة الفعل وقيل هو من الدعوى أي تدعون أن لا بعث ولا حشر فالباء سببية أو للملابسة باعتبار الذكر. وأيد التفسير الأول بقراءة أبي رجاء والضحاك والحسن وقتادة وابن يسار وعبد الله بن مسلم وسلام ويعقوب «تَدْعُونَ» بسكون الدال وهي قراءة ابن أبي عبلة وأبي زيد وعصمة عن أبي بكر والأصمعي عن نافع وذكر الزمخشري في سورة المعارج أن يدعون مخففاً من قولهم دعا بكذا إذا استدعاه وعن الفراء أنه من دعوت أدعو والمعنى هذا الذي كنتم به تستعجلون وتدعون الله تعالى بتعجيله يعني قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ [الأنفال: ٣٢] الخ وروي عن مجاهد أن الموعود عذاب يوم بدر وهو بعيد وأما ما قيل من أن الموعود الخسف والحاصب وقد وقعا لأن المراد بالخسف الذل كما في قوله:

ولا يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد

وبالحاصب الحصى وقد رمى ﷺ به في وجوههم كما في الخبر المشهور، أو لم يقعا بناءً على ما عرف أولاً من المراد بهما ولا يضر ذلك إذ تخلف الوعيد لا ضير فيه فليس بشيء كما لا يخفى وكان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فقال سبحانه له عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أروني كما هو المشهور وقد مر تحقيقه ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ أي من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي بالنصرة عليكم ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فمن يجيركم من عذاب النار، وأقيم الظاهر مقام المضمر المخاطب دلالة على أن موجب البوار محقق فأنّى لهم الإجارة والظاهر أن جواب الشرط والمعطوف عليه شيء واحد وحاصل المعنى لا مجير لكم من عذاب النار لكفركم الموجب له انقلبنا إلى رحمة الله تعالى بالهلاك كما تمنون لأن فيه الفوز بنعيم الآخرة أو بالنصرة عليكم، والأدلة للإسلام كما نرجو لأن في ذلك الظفر بالبغيتين ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص بالإيمان وأن فيما هم فيه شغلاً شاغلاً عن تمني هلاك النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين، وهذا أوجه أوجه ثلاثة ذكرها الزمخشري. ثانيها أن المعنى أن أهلكنا الله تعالى بالموت ونحن هداتكم والآخذون بحجزكم فمن يجيركم من النار وإن رحمنا بالغلبة عليكم وقتلكم عكس ما تمنون فمن يجيركم لأن المقتول على أيدينا هالك في الدنيا والآخرة، وعلى هذا الجواب متعدد لتعدد موجبه، ورجح الأول بأن فيه تسفيهاً لرأيهم لطلبهم ما هو سعادة أعدائهم ثم الحث على ما هو أحرى وهو الخلاص مما هم فيه من موجب الهلاك وهذا فيه الأول من حيث إنهم لم يتمنون هلاك من يجيرهم من عذاب بإرشاده والسياق ادعى للأول وثالثها أن المعنى إن أهلكنا الله تعالى في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له وعلى هذا الجواب متعدد أيضاً، والهلاك فيه محمول على المجاز دون الحقيقة كما في سابقه، والغرض الجزم بأنهم لا مجير لهم وأن حالهم إذا ترددت بين الهلاك بالذنب والرحمة بالإيمان وهم مؤمنون فماذا يكون حال من لا إيمان له وهذا فيه بعد ﴿قُلْ﴾ أي لهم جواباً عن تمنيهم ما لا يجديهم بل يرديهم معرضاً بسوء ما هم عليه ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ أي الله الرحمن ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي فيجيرنا برحمته عز وجل من عذاب الآخرة ولم نكفر مثلكم حتى لا نجاز البتة ولما جعل الكفر سبب الإساءة في الآية الأولى جعل الإيمان سبب الإجارة في هذه ليتم التقابل ويقع التعريض موقعه ولم يقدم مفعول ﴿آمنا﴾ لأنه لو قيل به آمنا كان ذهاباً إلى التعريض بإيمانهم بالأصنام وكان خروجاً عما سيق له الكلام وحسن التقديم في قوله تعالى ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لاقتضاء التعريض بهم في أمر التوكل ذلك أي وعليه توكلنا ونعم الوكيل فنصرنا لا على العدد والعدد كما أنتم عليه والحاصل أنه لما ذكر فيما قبل الإهلاك والرحمة وفسر برحمة الدنيا والآخرة أكد ها هنا بحصولها لهم في الدارين لإيمانهم وتوكلهم عليه تعالى خاصة، وفي ذلك تحقيق عدم حصولها للكافرين لانتفاء الموجبين ثم في الآية خاتمة على منوال السابقة وتبيين أن أحسن العمل الإيمان والتوكل على الله تعالى وحده وهو حقيقة التقوى وقوله تعالى ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في الدارين وعيد بعد تلخيص الموجب لكنه أخرج مخرج الكلام المنصف أي من هو منا ومنكم في الخ وقرأ الكسائي «فسيعلمون» بياء الغيبة نظراً إلى قوله تعالى ﴿فمن يجير الكافرين﴾ وقوله سبحانه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض بالكلية وعن الكلبي لا تناله الدلاء وهو مصدر وصف به للمبالغة أو مؤول باسم الفاعل. وأيّاً ما كان فليس المراد بالماء ماءً معيناً وإن كانت الآية كما روى ابن المنذر والفاكهي عن ابن الكلبي نازلة في بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضرمي ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي جار أو ظاهر سهل المأخذ لوصول الأيدي

إليه وهو فعيل من معن أو مفعول من عين وعيد في الدنيا خاصة وأردف الوعيد السابق به تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، وأنكم إذا لم تعبدوه عز وجل للحياة الباقية فاعبدوه للفانية، وتليت هذه الآية عند بعض المستهزئين فلما سمع ﴿**فمن يأتيكم**﴾ الخ قال تجيء به الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله تعالى من الجراءة على الله جل جلاله وآياته وتفسير الآيات على هذا الطرز هو ما اختاره بعض الأئمة وهو أبعد مغزى من غيره والله تعالى أعلم بأسرار كلامه.